د. صلاح الدين النكدلي

شرح وصية علي

لكميل بن زياد

الطبعة الشبكية الأولى
جمادى الآخرة / ١٤٣٠هجري
حزيران / يونيو ٢٠٠٩ميلادي
نسخة مزيدة ومنقحة

الناشر: الدار الإسلامية للإعلام

العنوان
I.I.D e.V.
P.O.Box: 100810
D-52008 Aachen
Germany

Tel: + 49 241-538373
Fax: + 49 241-538887

Email: iid@iid-alraid.com
Website: www.iid-alraid.com

1. Auflage, 06.2009

الإمام ابن القيم

شرح

وصية علي

لكميل بن زياد

أشرف على نشره

د . صلاح الدين النكدلي

الطبعة الشبكية الأولى

جمادى الآخرة / ١٤٣٠هـ

حزيران / يونيو ٢٠٠٩م

نسخة مزيدة ومنقحة

الناشر : الدار الإسلامية للإعلام

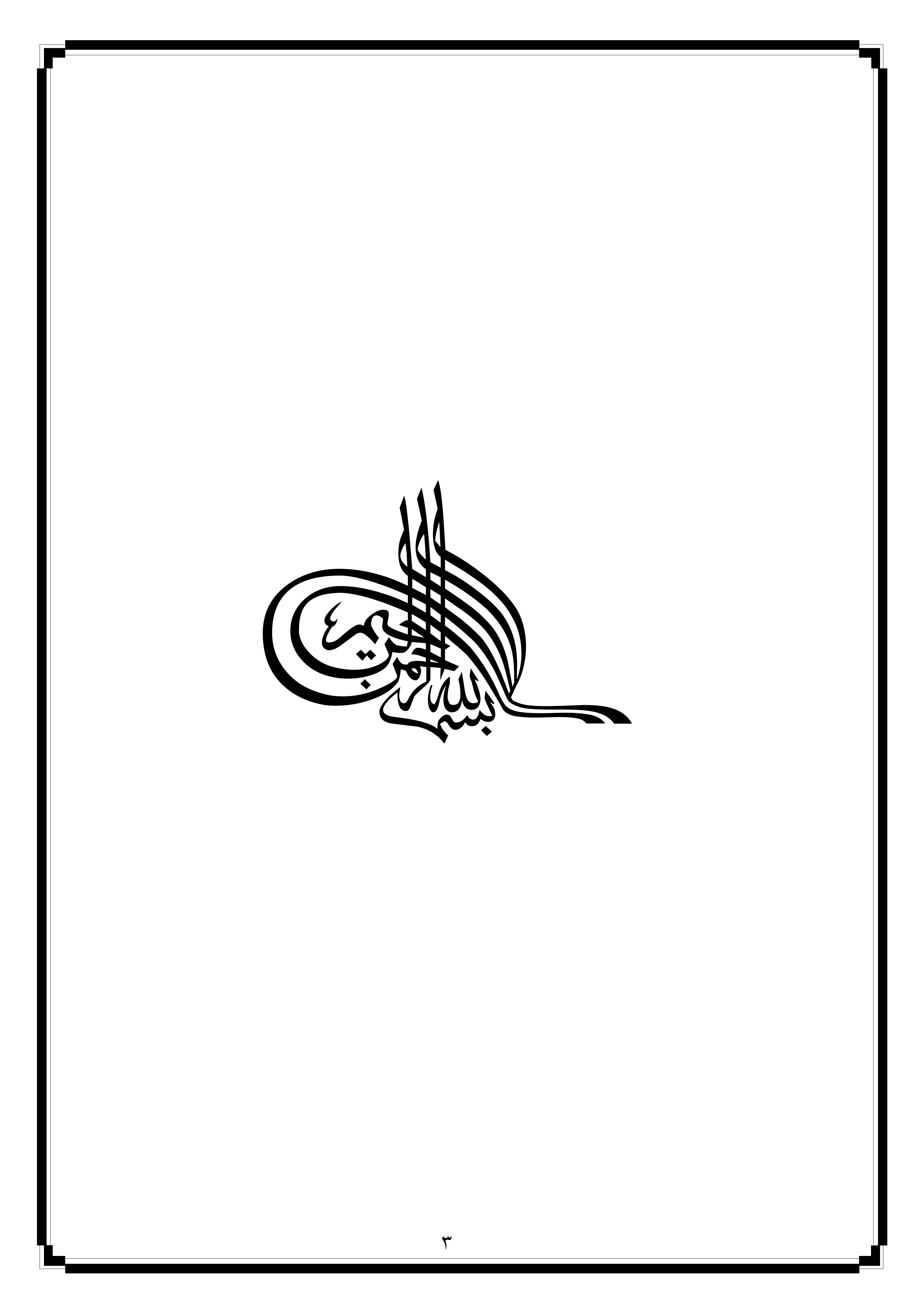
العنوان

I.I.D e.V.
P.O.Box: 100810
D-52008 Aachen
Germany

Tel: + 49 241-538373
Fax: + 49 241-538887

Email: iid@iid-alraid.com
Website: www.iid-alraid.com

1. Auflage, 06.2009



المُحتَوَيات

مُقَدِّمَة

« **إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا ، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ** » [رواه ابن ماجة] .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾ [النساء : ١] .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا**﴾ [الأحزاب : ٧٠-٧١] .

أما بعد : « **فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ ، وَكُلَّ ضَلاَلَةٍ فِي النَّارِ** » [رواه النسائي] .

* * *

قرأت في كتاب « مفتاح دار السعادة » .. للإمام المحقق محمد ابن أبي بكر أيوب المعروف بـ « ابن قيم الجوزية » أو « ابن القيم » رحمه الله تعالى .. بحثاً جامعاً مانعاً في العلم وفضله .. واستوقفني أثر نفيس المعاني ، محكم المباني ، نطق به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ ، يوصي بكلامه التابعيَّ الجليلَ كُمَيْلَ بنَ زياد النخعي بطلب العلم ، ويبين له فضائله ، ويحذره من

الغوائل التي تهجم على طالب العلم .. فإن آنســـتْ منه ضـــعفاً أتعبتـــه .. وربمـــا أهلكتـــه وأفســـدت عليه آخرته .

أَخذَ كلام علي ﷺ بمجامع قلبي .. وتجوّل بي في واقع المسلمين المعاصر ، فرأيت كلامـــه ﷺ ينطبق على كثير من العلماء وطلبة العلم .. وكأنه يعيش أيامنا ويصف ما عليه عامة أهـــل العلم في زماننا ! .

ثمَّ قلَّبتُ النظر في شرح ابن القيم رحمه الله تعالى لوصية علي ﷺ .. فوجدتـــه عظـــيم الفائدة .. مع لطف في العبارة ، ورفق في الإشارة .. فعَنَّ ليَ استخراجُ الوصية وشرحها من « مفتاح دار السعادة » والعملُ على نشرهما في كتاب مستقل .. رجاء أن تعمَّ الفائدة .. فقد راودني أن وجود الوصية وشرحها في كتاب جامع .. ربما حجب كثيرين عن الإطلاع عليهما والنهل من نبعهما الثرِّ النمير .

* * *

هذا ، وما فتئ المشتغلون بالعلم ، العارفون بضرورته ، يوصون بطلبه والعمل به .. فهـــذا معاذ بن جبل أحد أعلام الرعيل الأول من خريجي مدرسة النبوة ﷺ أجمعين .. ينادي في الناس :

« **عليكم بالعلم ؛ فإن طلبه عبادة ، ومعرفته خشية ، والبحثَ عنه جهاد ، وتعليمَهُ لمن لا يعلمه صدقة ، ومذاكرتَهُ تسبيح . به يُعرف الله ويُعبد ، وبه يُمجّد الله ويُوحّـــد . يرفـــع الله بالعلم أقواماً يجعلهم للناس قادة وأئمة يهتدون بهم ، وينتهون إلى رأيهم** » [ابن تيمية : مجموع الفتاوى ٣٩/١٠] .

واقتدى العلماء الربانيون جيلاً بعد جيل بالصحب الكرام .. فقاموا ينـــادون في النـــاس يحضونهم على طلب العلم النافع .. فالعلماء الأتقياء هم مصابيح الهداية في الأمة .. بهم تبصر مواقع أقدامها وتسير إلى المستقبل بخطوات واثقة واعدة .. أما إذا فسدت سرائرهم فلا تسل عن الخـــراب والدمار الذي يلحقونه بالناس .. يقول ابن القيم في [إعلام الموقعين ١٠/١] :

« **لما كان قيام الإسلام بطائفتي العلماء والأمراء ، وكان الناس كلهم لهم تبعاً ، كان صلاح العالَم بصلاح هاتين الطائفتين ، وفساده بفسادهما . كما قال عبد الله بن المبـــارك وغـــيره مـــن السلف : صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس ، وإذا فسدا فسد الناس . قيل : من هم ؟ قال : الملوك والعلماء . كما قال عبد الله بن المبارك :**

رأيتُ الذنوبَ تُميتُ القلوبَ   وقد يُورثُ الذلَّ إدمانُها
وتركُ الذنوبِ حياةُ القلــوبِ   وخيرٌ لنفسك عصيانُها
وهلْ أفســدَ الدينَ إلا الملوكُ   وأحبارُ سوءٍ ورهبانُها ؟! »

ولكن من الذي يستحق وصف « **عالم** » ؟

وجواباً على السؤال أختار طائفة من كلام أهل العلم قرأتها في « سنن الدارمي » :

١- يقول ابن عمر رضي الله عنهما :

« **لاَ يَكُونُ الرَّجُلُ عَالِمًا حَتَّى لاَ يَحْسُدَ مَنْ فَوْقَهُ ، وَلاَ يَحْقِرَ مَنْ دُونَهُ ، وَلاَ يَبْتَغِيَ بِعِلْمِهِ ثَمَنًا** » [١/٨٨] .

٢- عن عمران المنقري قال :

« **قُلْتُ لِلْحَسَنِ** - البصري - **يَوْمًا فِي شَيْءٍ قَالَهُ : يَا أَبَا سَعِيدٍ! لَيْسَ هَكَــذَا يَقُــولُ الْفُقَهَاء .**

فَقَالَ : وَيْحَكَ وَرَأَيْتَ أَنْتَ فَقِيهًا قَطُّ ؟! . إِنَّمَا الْفَقِيهُ الزَّاهِدُ فِي الدُّنْيَا ، الرَّاغِبُ فِي الآخِرَةِ ، الْبَصِيرُ بِأَمْرِ دِينِه ، الْمُدَاوِمُ عَلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ » [١/٨٩] .

٣- يقول عبد الأعلى التيمي رحمه الله تعالى :

« **مَنْ أُوتِيَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لاَ يُبْكِيهِ لَخَلِيقٌ أَنْ لاَ يَكُونَ أُوتِيَ عِلْمًا يَنْفَعُهُ ، لأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَعَتَ الْعُلَمَاءَ ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ ... إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ۝ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُــونَ وَيَزِيــدُهُمْ خُشُوعًا ﴾** [الإسراء :١٠٧-١٠٩] » [١/٨٨] .

٤- يقول علي بن أبي طالب ﷺ :

« **الْفَقِيهُ حَقُّ الْفَقِيهِ الَّذِي لاَ يُقَنِّطُ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَلاَ يُؤَمِّنُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلاَ يُرَخِّصُ لَهُمْ فِي مَعَاصِي اللَّهِ .**

إِنَّهُ لاَ خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لاَ عِلْمَ فِيهَا ، وَلاَ خَيْرَ فِي عِلْمٍ لاَ فَهْمَ فِيهِ ، وَلاَ خَيْرَ فِي قِرَاءَةٍ لاَ تَدَبُّرَ فِيهَا » [١/٨٩] .

٥- يقول الحسن البصري رحمه الله تعالى :

« **كَانَ الرَّجُلُ إِذَا طَلَبَ الْعِلْمَ ، لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يُرَى ذَلِكَ فِي بَصَرِهِ ، وَتَخَشُّعِهِ ، وَلِسَانِهِ ، وَيَدِهِ ، وَصِلَتِهِ ، وَزُهْدِهِ** » [١/١٠٧] .

ونحن نشهد في هذا العصر حركة تروم تجديد ما اندرس من معاني « الوحي » في قلوب وحياة المسلمين .. ونأمل من أعماق قلوبنا أن يتعانق « الإخلاص » و « الصواب » في الجهود التي تبذل في سبيل التجديد والنهوض بالأمة ؛ فمن فقد « الإخلاص » أنهكته وأهلكته « الشهوات ».. وجعلته مستخْدِماً للدين لا خادماً له . ومن نأى عن « الصواب » عبثت به « الشبهات » .. وقد يضل مسعاه وهو يظن أنه يحسن صنعاً . ورحم الله إمام التابعين الحسن البصري فقد وضع يده على مفاسد افتراق الصواب عن الإخلاص في كلمة رائعة يقول فيها :

« **العامل على غير علم كالسالك على غير طريق ، والعامل على غير علم ما يُفسد أكثر مما يصلح! ، فاطلبوا العلم طلباً لا تضروا بالعبادة ، واطلبوا العبادة طلباً لا تضروا بالعلم ؛ فإن قوماً طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ ، ولو طلبوا العلم لم يدلّهم على ما فعلوا** » [مفتاح دار السعادة ١/٨٣] .

وبما أننا نتطلع إلى ترشيد جهود الدعاة إلى الحق .. فقد رأينا أن وصية أمير المؤمنين علي ﷺ ، وشرح ابن القيم لها ، يصبان في نهر تصويب العمل وإخلاص النية .. ويسرنا أن نضعهما بهذه الصورة بين أيدي أبناء الصحوة الإسلامية المباركة .

ونختم هذا التقديم بدعاء يناسب المقام .. دعا به ابن القيم في مفتاح دار السعادة [١/٤٧-٤٨] ، فقال :

« **اللهم فعياذاً بك ممن قَصُرَ في العلم والدين باعُه ، وطالت في الجهل وآذى عبادك ذراعُه . فهو لجهله يرى الإحسان إساءة ، والسنة بدعة ، والعُرف نكراً . ولظُلمه يجزي بالحسنة سيئة كاملة ، وبالسيئة الواحدة عشراً !! ، قد اتخذ بَطَرَ الحقِّ وغَمْطَ الناسِ سُلَّماً إلى ما يحبه من الباطل ويرضاه ، ولا يعرف من المعروف ولا ينكر من المنكر إلا ما وافق إرادته أو حالف هواه . يستطيل على أولياء الرسول وحزبه بأصغريه ، ويجالس أهل الغيّ والجهالة ويزاحمهم بركبتيه ، قد ارتوى من ماء آجنٍ وتضلّع ، واستشرف إلى مراتب ورثة الأنبياء وتطلع . يركض في ميدان جهله مع الجاهلين ، ويبرز عليهم في الجهالة فيظن أنه من السابقين ، وهو**

عند الله ورسوله والمؤمنين عن تلك الوراثة النبوية بمعزل ، وإذا أُنزل الورثةُ منــازلهم منــها فمنزلتُه منها أقصى وأبعد منــزل .

نزلوا بمكةَ في قبائلَ هاشمٍ ونزلتَ بالبيداءِ أبعد منــزلِ !!

وعياذاً بك ممن جعل الملامة بضاعته ، والعَذْلَ نصيحتَه ؛ فهو دائماً يبدي في الملامــة ويعيد ، ويكرر على العذل فلا يفيد ولا يستفيد !!

بل عياذاً بك من عدو في صورة ناصح ، وولي في مسلاخ بعيدٍ كاشح ، يجعل عداوته وأذاه حذراً وإشفاقاً ، وتخذيله وتنفيره إسعافاً وإرفاقاً !! .

وإذا كانت العين لا تكاد إلا على هؤلاء تُفتح ، والميزان بهم يخفُّ ولا يرجح ، فما أحرى اللبيب بأن لا يَعيرهم من قلبه جزءاً من الالتفات ، ويسافر في طريق مقصده بينهم سفره إلى الأحياء بين الأموات . وما أحسن ما قال القائل :

وفي الجهل قبل الموت موتٌ لأهلهِ وأجسامُهم قبل القبور قبورُ
وأرواحهم في وَحشةٍ من جسومهمْ وليس لهم حتى النشور نشورُ

اللهم فلك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، وبك المستغاث ، ولا حول ولا قوة إلا بك ، وأنت حسبنا ونعم الوكيل » .

جهدي في هذه الرسالة

١- ضبط معنى الوصية وشرحها ، وتشكيل الكلمات التي غلب على الظن وجود فائدة منها.

٢- ذكر أسماء السور وأرقام الآيات التي استشهد بها الشارح .

٣- العودة إلى كتب الحديث التي عُنيت ببيان الصحيح والضعيف ، وذكر حال كل حديث لم يذكره المؤلف ، والمرجع الذي يرجع إليه . وفي بعض الأحايين نَقْلُ نص الحديث كاملاً.. إذا غلب على الظن وجود فائدة ترجى من ذلك .

٤- شرح بعض الكلمات التي يُظَنُّ أنها تحتاج إلى الشرح ، وفي حدود ضيقة .

٥- وضع عناوين الفصول ، وإضافة فقرات من كلام علي رضي الله عنه عند شرحها ، في المواطن التي لم يذكرها الشارح .

٦- عدم إشغال القارئ بذكر مراجع ما استشهد الشارح به من كلام العلماء وشعر الشعراء ، وما ذُكر في باب الشعر فقليل جداً .

٧- وضعت الحواشي جميعها في آخر البحث .

هذا .. وقد كان لي رأي في بعض ما ذهب إليه ابن القيم رحمه الله أثناء الشرح .. لكني آثرت عدم الخوض في ذلك .. لأسباب لا تخفى على القارئ .. لذلك أحببت أن أكتفي بهذه الإشارة.

نص الوصية

قال كُمَيْلٌ بنُ زياد النخعي [1] : أخذ علي بن أبي طالب ﷺ بيدي فأخرجني ناحية الجبانة، فلما أصحر جعل يتنفس ، ثم قال :

« **يا كميلُ بن زياد!**

القلوب أوعيةٌ ؛ فخيرها أوعاها . احفظْ عني ما أقول لك ، الناس ثلاثة :

❐ **فعالم رباني .**

❐ **ومتعلم على سبيل نجاة .**

❐ **وهمج رعاع ، أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيؤوا بنور العلم ، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق !! .**

يا كُميلُ!

❐ **العلمُ خيرٌ من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال .**

❐ **العلم يزكو على الإنفاق – وفي رواية : على العمل – والمال تنقصه النفقة .**

❐ **العلم حاكم والمال محكوم عليه .**

❐ **ومحبة العلم دين يدان بها .**

❐ **العلم يكسب العالِمَ الطاعةَ في حياته ، وجميلَ الأحدوثةِ بعد وفاته . وصنيعةُ المالِ تزول بزواله ؛ مات خُزَّان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر : أعيانُهم مفقودة ، وأمثالُهم في القلوب موجودة .**

هاه هاه ؛ إن ههنا علماً – وأشار بيده إلى صدره – لو أصبتُ له حَمَلَةً!

بلى أصبتُه :

❐ **لَقِناً غير مأمون عليه ، يستعمل آلة الدين للدنيا ، يستظهر بحُجَجِ الله على كتابه ، وبنعمه على عباده !! .**

❑ أو منقاداً لأهل الحق لا بصيرة له في أحْنائه ، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة.

لا ذا ولا ذاك !! .

❑ أو منهوماً باللذات ، سَلِسَ القِياد للشهوات .

❑ أو مُغْرىً بجمع الأموال والادخار .

ليسا من دعاة الدين ، أقرب شبهاً بهما الأنعام السائمة ، لذلك يموت العلم بموت حامليه .

اللهم بلى! لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة ، لئلا تبطل حججُ اللهِ وبيناتُه ، أولئك الأقلُّون عدداً ، الأعظمون عند الله قدراً ، بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم ويزرعوها في قلوب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر ؛ فاستلانوا ما استوعر منه المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلقة بالملأ الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه ودعاته إلى دينه .

هاه هاه شوقاً إلى رؤيتهم ، وأستغفر الله لي ولك . إذا شئت فقم » .

[رواه أبو نعيم في الحلية وغيره] [٢]

بين يدي الشرح

قال أبو بكر الخطيب : هذا حديث حسن من أحسن الأحاديث معنى وأشرفها لفظاً ، وتقسيم أمير المؤمنين للناس في أوله تقسيم في غاية الصحة ونهاية السداد ، لأن الإنسان لا يخلو من أحد الأقسام التي ذكرها ، مع كمال العقل وإزاحة العلل : إما أن يكون عالماً ، أو متعلماً ، أو مغفلاً للعلم وطلبه ليس بعالم ولا طالب له .

فالعالم الرباني هو الذي لا زيادة على فضله لفاضل ، ولا منـــزلة فوق منـــزلته لمجتهد. وقد دخل في الوصف له بأنه رباني ، وصفه بالصفات التي يقتضيها العلم لأهله ، ويمنع وصفه بما خالفها . ومعنى الرباني في اللغة : الرفيع الدرجة في العلم ، العالي المنـــزلة فيه .

وعلى ذلك حملوا قوله تعالى : ﴿ **لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ** ... ﴾ [المائدة : ٦٣] وقوله : ﴿ ... **كُونُوا رَبَّانِيِّينَ** ... ﴾ [آل عمران : ٧٩] . قال ابن عباس : حكماء فقهاء . وقال أبو رزين : فقهاء علماء . وقال أبو عمر الزاهد : سألت ثعلباً عن هذا الحرف ، وهو « الرباني » فقال : سألت ابن الأعرابي ، فقال : **إذا كان الرجل عالماً عاملاً معلماً قيل له : هذا رباني ، فإن خرم عن خصلة منها لم نقل له : رباني** .

قال ابن الأنباري عن النحويين : إن الربانيين منسوبون إلى الرب ، وإن الألف والنون زيدتا للمبالغة في النسب ، كما تقول : لحياني وجبهاني ، إذا كان عظيم اللحية والجبهة .

وأما المتعلم على سبيل النجاة ، فهو الطالب بتعلمه والقاصد به : نجاتَه من التفريط في تضييع الفروض الواجبة عليه ، والرغبة بنفسه عن إهمالها وإطراحها ، والأنفة من مجانسة البهائم. ثم قال : وقد نفى بعض المتقدمين عن الناس من لم يكن من أهل العلم .

وأما القسم الثالث : فهم المهملون لأنفسهم ، الراضون بالمنـــزلة الدنية والحال الخسيسة ، التي هي في الحضيض الأسقط والهبوط الأسفل ، التي لا منـــزلة بعدها في الجهل ولا دونها في السقوط . وما أحسن ما شبههم بالهمج الرعاع ، وبه يُشَبَّه دُناةُ الناس وأراذلهم . **والرعاع** : **المتبدد المتفرق. والناعق: الصائح** ، وهو في هذا الموضع الراعي. يقال: نعق الراعي بالغنم ينعق : إذا صاح بها . ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة : ١٧١] .

ونحن نشير إلى بعض ما في هذا الحديث من الفوائد .

فقوله ﷺ : « **القلوب أوعية** »

يشبه القلب بالوعاء والإناء والوادي ، لأنه وعاء للخير والشر . وفي بعض الآثار : « **إن الله في أرضه آنية ، وهي القلوب ، فخيرها أرقها وأصفاها وأصلبها** » [٣] فهي أواني مملوءة من الخير وأواني مملوءة من الشر ، كما قال بعض السلف : قلوب الأبرار تغلي بالبر ، وقلوب الفجار تغلي بالفجور . وفي مثل هذا قيل في المثل : « وكلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضح » . وقال تعالى : ﴿ **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا** ... ﴾ [الرعد : ١٧] . شبَّه العلمَ بالماء النازل من السماء ، والقلوبَ في سعتها وضيقها بالأودية ، فقلبٌ كبيرٌ واسع يسع علماً كثيراً ، كوادٍ كبيرٍ واسع يسع ماء كثيراً ، وقلبٌ صغيرٌ ضيق يسع علماً قليلاً ، كوادٍ صغيرٍ يسع ماء قليلاً . ولهذا قال النبي ﷺ : « **لاَ تُسَمُّوا الْعِنَبَ الْكَرْمَ فَإِنَّ الْكَرْمَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ** » [٤] فإنهم كانوا يسمون شجر العنب الكرم لكثرة منافعه وخيره ، والكرمُ كثيرةُ الخير والمنافع ، فأخبرهم أن قلب المؤمن أولى بهذه التسمية ، لكثرة ما فيه من الخير والمنافع .

***

وقوله : « **فخيرها أوعاها** »

يراد به : أسرعها وأثبتها وعياً . ويراد به أيضاً : أحسنها وعياً ، فيكون حسن الوعي، الذي هو إيعاء لما يقال له في قلبه ، هو سرعته وكثرته وثباته . والوعاء من مادة الوعى ؛ فإنه آلة ما يوعى فيه . كالغطاء والفراش والبساط ونحوها ، ويوصف بذلك القلب والأذن ، كقوله تعالى : ﴿ **إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ۞ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ** ﴾ [الحاقة : ١١-١٢] . قال قتادة : أُذن سمعت وعقلت عن الله ما سمعت . وقال الفراء : لتحفظها كل أذن فتكون عظة لمن يأتي بعد . فالوعي توصف به الأذن كما يوصف به القلب ، يقال : قلبٌ واعٍ وأذنٌ واعية ، لما بين الأذن والقلب من الارتباط ، فالعلم يدخل من الأذن إلى القلب ، فهي بابه والرسول الموصل إليه العلم ، كما أن اللسان رسوله المؤدي عنه . ومن عرف ارتباط

الجوارح بالقلب ، علم أن الأذن حقها أن توصف بالوعي ، وأنها إذا وعت وعى القلب . وفي حديث جابر في المثل الذي ضربته الملائكة للنبي ﷺ ولأمته ، وقول المَلَكِ له : « اسمع سمعت أذنك وعقل قلبك » [٥] ، فلما كان القلب وعاءً والأذنُ مدخلَ ذلك الوعاء وبابَه ، كان حصول العلم موقوفاً على حُسنِ الاستماعِ وعَقْلِ القلب . والعقل هو : ضبط ما وصل إلى القلب وإمساكه حتى لا يتفلت منه . ومنه : عقل البعير والدابة ، والعقال لما يعقل به [٦] . وعقل الإنسان يسمى عقلاً لأنه يعقله عن اتباع الغي والهلاك . ولهذا يسمى « حِجْراً » لأنه يمنع صاحبه كما يمنع الحِجْرُ [٧] ما حواه . فعقل الشيء أخص من علمه ومعرفته ، لأن صاحبه يعقل ما علمه ، فلا يدعه يذهب ، كما تُعقل الدابةُ التي يُخاف شرودها .

وللإدراك مراتب بعضها أقوى من بعض ؛ فأولها الشعور ، ثم الفهم ، ثم المعرفة ، ثم العلم ، ثم العقل . ومرادنا بالعقل : المصدر لا القوة الغريزية التي ركبها الله في الإنسان ، فخير القلوب ما كان واعياً للخير ضابطاً له ، وليس كالقلب القاسي الذي لا يقبله ، فهذا قلب حجري . ولا كالمائع الأخرق الذي يقبل ولكن لا يحفظ ولا يضبط ؛ فتفهيم الأول كالرسم في الحجر ، وتفهيم الثاني كالرسم على الماء ، بل خير القلوب ما كان ليناً صلباً : يقبل بلينه ما ينطبع فيه ،
ويحفظ صورته بصلابته ، فهذا تفهيمه كالرسم في الشمع وشبهه .

❦ ❦ ❦

وقوله : « **الناس ثلاثة فعالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع** »

هذا تقسيم خاص للناس ، وهو الواقع ؛ فإن العبد إما أن يكون قد حصل كماله من العلم والعمل أَوْ لا ؛ فالأول : العالم الرباني ، والثاني : إما أن تكون نفسه متحركة في طلب ذلك الكمال ساعية في إدراكه أَوْ لا . والثاني : هو المتعلم على سبيل النجاة . والثالث : هو الهمج الرعاع .

فالأول هو الواصل ، والثاني هو الطالب ، والثالث هو المحروم .

○ **القسم الأول** :

العالم الرباني : قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو « المعلم » أخذه من التربية : أي يربي الناس بالعلم كما يربي الطفل أبوه . وقال سعيد بن جبير : هو « الفقيه العليم الحكيم » . قال

سيبويه : زادوا ألفاً ونوناً في الرباني إذا أرادوا تخصيصاً بعلم الرب تبارك وتعالى ، كما قالوا : شعراني ولحياني . ومعنى قول سيبويه رحمه الله : إن هذا العالِم لما نُسب إلى علم الرب تعالى الذي بعث به رسوله وتخصص به ، نُسب إليه دون سائر من علم علماً . قال الواحدي : فالرباني على قوله منسوب إلى الرب على معنى التخصيص بعلم الرب ، أي : يعلم الشريعة وصفات الربّ تبارك وتعالى . وقال المبرد : الربّاني الذي يَرُبُّ العلم ويَرُبُّ الناس به ، أي يعلمهم ويصلحهم. وعلى قوله : فالرباني من رب يرب ربّاً ، أي يربيه ، فهو منسوب إلى التربية : يربي علمه ليكمل ويتم بقيامه عليه وتعاهده إياه ، كما يربي صاحب المال ماله ، ويربي الناس به كما يربي الأطفال أولياؤهم . وليس هذا من قوله : ﴿ **وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ** ... ﴾ [آل عمران : ١٤٦] فالربيون هنا « الجماعات » بإجماع المفسرين . قيل : إنه من « الرِّبة » بكسر الراء : وهي الجماعة . قال الجوهري : الرِّبي واحد الربيين وهم : الألوف من الناس . قال تعالى : ﴿ **وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ** ... ﴾ [آل عمران : ١٤٦] .

ولا يوصف العالم بكونه ربانياً حتى يكون عاملاً بعلمه معلماً له.

○ القسم الثاني :

متعلم على سبيل نجاة : أي قاصداً بعلمه النجاة ، وهو : المخلص في تعلمه ، المتعلم ما ينفعه ، العامل بما علمه . فلا يكون المتعلم على سبيل نجاة إلا بهذه الأمور الثلاثة ؛ فإنه إن تعلم ما يضره ولا ينفعه لم يكن على سبيل نجاة ، وإن تعلم ما ينتفع به لا للنجاة فكذلك ، وإن تعلمه و لم يعمل به لم تحصل له النجاة . ولهذا وصفه بكونه على السبيل ، أي على الطريق التي تنجيه ، وليس حرف « على » وما عمل فيه متعلقاً بمتعلم إلا على وجه التضمين ، أي مفتش متطلع على سبيل نجاته . فهذا في الدرجة الثانية . وليس ممن تعلمه ليماري به السفهاء ، أو يجاري به العلماء ، أو يصرف وجوه الناس إليه . فإن هذا من أهل النار ، كما جاء في الحديث ، وثبته أبو نعيم أيضاً، قوله ﷺ : « **مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ ، لاَ يَتَعَلَّمُهُ إلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا ، لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّة** » (٨) ، قال : وثبت أيضاً قوله ﷺ : « **أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللَّهُ بِعِلْمِه** » (٩) ، فهؤلاء ليس فيهم من هو على سبيل نجاة ، بل على سبيل الهلكة ، نعوذ بالله من الخذلان .

❍ **القسم الثالث :**

المحروم المعرض فلا عالم ولا متعلم بل همج رعاع : والهمج من الناس : حمقاؤهم وجهلتهم. وأصله من الهمج : جمعُ همجة ، وهو ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والدواب وأعينها ، فشبَّه هَمَجَ الناس به . والهمج أيضاً مصدر ، قال الراجز :

قد هلكت جارتنا من الهَمَجْ وإن تَجُعْ تأكلْ عَتوداً أو ثُلَجْ (١٠)

والهمج هنا مصدر ، ومعناه : سوء التدبير في أمر المعيشة . وقولهم : همج هامج مثل : ليل لايل . والرعاع من الناس : الحمقى الذين لا يُعتد بهم .

❦ ❦ ❦

وقوله رضي الله عنه : « **أتباع كل ناعق** »

أي : من صاح بهم ودعاهم تبعوه ، سواء دعاهم إلى هدى أو إلى ضلال ، فإنهم لا علم لهم بالذي يُدْعَون إليه ، أحقٌ هو أم باطل ؟ ، فهم مستجيبون لدعوته . وهؤلاء من أضر الخلق على الأديان ، فإنهم الأكثرون عدداً ، الأقلون عند الله قدراً ، وهم حطب كل فتنة ، بهم توقد ويشب ضرامها ، فإنها يهتز لها أولو الدين ، ويتولاها الهمج الرعاع . وسُمِّيَ داعيهم « ناعقاً » تشبيهاً لهم بالأنعام التي ينعق بها الراعي فتذهب معه أين ذهب . قال تعالى : ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة: ١٧١] .

وهذا الذي وصفهم به أمير المؤمنين هو من عدم علمهم وظلمة قلوبهم ، فليس لهم نور ولا بصيرة يفرقون بها بين الحق والباطل ، بل الكل عندهم سواء .

❦ ❦ ❦

وقوله رضي الله عنه : « **يميلون مع كل ريح – وفي رواية : مع كل صائح –** »

شبه عقولهم الضعيفة بالغصن الضعيف ، وشبه الأهوية والآراء بالرياح ، والغصن يميل مع الريح حيث مالت ، وعقول هؤلاء تميل مع كل هوى وكل داع ، ولو كانت عقولاً كاملة كانت كالشجرة الكبيرة التي لا تتلاعب بها الرياح . وهذا بخلاف المثل الذي ضربه النبي ﷺ للمؤمن بالخامة من الزرع ، تُفيئه الريح مرة وتقيمه أخرى ، والمنافق كشجرة الأرز التي لا تقطع حتى تستحصد [١١] ، فإن هذا المثل ضرب للمؤمن وما يلقاه من عواصف البلاء والأوجاع والأوجال وغيرها ، فلا يزال بين عافية وبلاء ، ومحنة ومنحة ، وصحة وسقم ، وأمن وخوف وغير ذلك ، فيقع مرة ويقوم أخرى ، ويميل تارة ويعتدل أخرى ، فُيَكَفَّر عنه بالبلاء ويُمَحَّص به ويُخَلَّص من كدره . والكافر كله خبث ، ولا يصلح إلا للوقود ، فليس في إصابته في الدنيا بأنواع البلاء من الحكمة والرحمة ما في إصابة المؤمن ، فهذه حال المؤمن في الابتلاء . وأما مع الأهواء ودعاة الفتن والضلال والبدع فكما قيل :

تزول الجبالُ الراسياتُ وقلبُهُ　　　على العهد لا يلوي ولا يتغيرُ

❦　❦　❦

وقوله رضي الله عنه : « **لم يستضيؤوا بنور العلم ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق** »

بَيَّنَ السبب الذي جعلهم بتلك المثابة ، وهو أنه لم يحصل لهم من العلم نور يفرقون به بين الحق والباطل . كما قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ** ... ﴾ [الحديد : ٢٨] . وقال تعالى : ﴿ **أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا** ... ﴾ [الأنعام : ١٢٢] وقوله تعالى : ﴿ **يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ... ﴾ [المائدة : ١٦] الآية . وقوله : ﴿ ... **وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا** ...﴾ [الشورى : ٥٢] .

فإذا عُدِمَ القلبُ هذا النور صار بمنزلة الحيران الذي لا يدري أين يذهب ، فهو لحيرته وجهله بطريق مقصوده يؤم كل صوت يسمعه ، ولم يسكن قلوبهم من العلم ما تمتنع به من

دعاة الباطل ، فإن الحق متى استقر في القلب قوي به وامتنع مما يضره ويهلكه . ولهذا سمى الله الحجة العلمية « سلطاناً » ، فالعبد يؤتى من ظلمة بصيرته ومن ضعف قلبه ، فإذا استقر فيه العلم النافع استنارت بصيرته وقوي قلبه .

وهذان الأصلان هما قطب السعادة ، أعني : « العلم والقوة » وقد وصف بهما ﷻ المعلم الأول جبريل صلوات الله وسلامه عليه ، فقال : ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ۝ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى** ﴾ [النجم : ٤-٥] . وقال تعالى في [سورة التكوير : ١٩-٢٠] : ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ** ﴾ . فوصفه بالعلم والقوة ، وفيه معنى أحسن من هذا وهو الأشبه بمراد عليّ رضي الله عنه ، وهو : إن هؤلاء ليسوا من أهل البصائر الذين استضاؤوا بنور العلم ، ولا لجؤوا إلى عالم مستبصر فقلدوه ، ولا متبعين لمستبصر ؛ فإن الرجل إما أن يكون بصيراً ، أو أعمى متمسكاً ببصير يقوده ، أو أعمى يسير بلا قائد .

* * *

وقوله رضي الله عنه : « **العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال** »

يعني أن العلم يحفظ صاحبه ويحميه من موارد الهلكة ومواقع العطب ، فإن الإنسان لا يلقي نفسه في هلكة إذا كان عقله معه ، ولا يعرضها لمتلف إلا إذا كان جاهلاً بذلك لا علم له به . فهو كمن يأكل طعاماً مسموماً ؛ فالعالم بالسم وضرره يحرسه علمه ويمتنع به من أكله ، والجاهل به يقتله جهله . فهذا مثل حراسة العلم للعالم ، وكذا الطبيب الحاذق يمتنع بعلمه عن كثير مما يجلب له الأمراض والأسقام ، وكذا العالم بمخاوف طريق سلوكه ومعاطبها ، يأخذ حذره منها ، فيحرسه علمه من الهلاك . وهكذا العالم بالله وبأمره ، وبعدوه ومكائده ومداخله على العبد ، يحرسه علمه من وساوس الشيطان وخطراته وإلقاء الشك والريب والكفر في قلبه، فهو بعلمه يمتنع من قبول ذلك ، فعلمه يحرسه من الشيطان ، فكلما جاء ليأخذه صاح به حَرَسُ العلم والإيمان فيرجع خاسئاً خائباً . وأعظم ما يحرسه من هذا العدو المبين العلم والإيمان . فهذا السبب الذي من العبد ، والله من وراء حفظه وحراسته وكلاءته ، فمتى وكله إلى نفسه طرفة عين تَخَطَّفَه عدوُّه . قال بعض العارفين : أجمع العارفون على أن التوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك ، وأجمعوا على أن الخذلان أن يخلي بينك وبين نفسك .

* * *

وقوله ﷺ : « **العلم يزكو على الإنفاق ، والمال تنقصه النفقة** »

العالم كلما بذل علمه للناس وأنفق منه تفجرت ينابيعه ، فازداد كثرة وقوة وظهوراً ، فيكتسب بتعليمه حِفْظَ ما عَلِمَه ، ويحصل له به علم ما لم يكن عنده ، وربما تكون المسألة في نفسه غير مكشوفة ولا خارجة من حيز الإشكال ، فإذا تكلم بها وعلَّمها اتضحت له وأضاءت ، وانفتح له منها علوم أُخَر . وأيضاً فإن الجزاء من جنس العمل ، فكما علَّم الخلق من جهالتهم ، جزاه الله بأن علمه من جهالته ، كما في صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار عن النبي ﷺ أنه قال في حديث طويل : « **إِنَّ اللَّهَ قَالَ لِي أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ** » . وهذا يتناول نفقة العلم : إما بلفظه ، وإما بتنبيهه وإشارته وفحواه .

ولزكاء العلم طريقان : أحدهما تعليمه ، والثاني العمل به ؛ فإن العمل به أيضاً ينميه ويكثره ويفتح لصاحبه أبوابه وخباياه . وقوله : « **والمال تنقصه النفقة** » لا ينافي قول النبي ﷺ : « **مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ** ... » [١٢] ، فإن المال إذا تصدقت منه وأنفقت ذهب ذلك القدر وخلفه غيره. وأما العلم فكالقبس من النار ، لو اقتبس منها العالم لم يذهب منها شيء ، بل يزيد العلم بالاقتباس منه ، فهو كالعين التي كلما أُخذ منها قوي ينبوعها وجاش معينها .

وفضل العلم على المال يُعْلم من وجوه :

أحدها : أن العلم ميراث الأنبياء ، والمال ميراث الملوك والأغنياء .

الثاني : أن العمل يحرس صاحبه ، وصاحب المال يحرس ماله .

الثالث : أن المال تذهبه النفقات ، والعلم يزكو على النفقة .

الرابع : أن صاحب المال إذا مات فارقه ماله ، والعلم يدخل معه قبره .

الخامس : أن العلم حاكم على المال ، والمال لا يحكم على العلم .

السادس : أن المال يحصل للمؤمن والكافر والبرّ والفاجر ، والعلم النافع لا يحصل إلا للمؤمن .

السابع : أن العالم يحتاج إليه الملوك فمن دونهم ، وصاحب المال إنما يحتاج إليه أهل العدم والفاقة .

الثامن : أن النفس تَشْرُف وتزكو بجمع العلم وتحصيله ، وذلك من كمالها وشرفها ، والمال يزكيها ولا يكملها ولا يزيدها صفة كمال ، بل النفس تنقص وتشح وتبخل بجمعه والحرص عليه ؛ فحرصها على العلم عين كمالها ، وحرصها على المال عين نقصها .

التاسع : أن المال يدعوها إلى الطغيان والفخر والخيلاء ، والعلم يدعوها إلى التواضع والقيام بالعبودية ؛ فالمال يدعوها إلى صفات الملوك ، والعلم يدعوها إلى صفات العبيد .

العاشر : أن العلم جاذب موصل لها إلى سعادتها التي خلقت لها ، والمال حجاب بينها وبينها .

الحادي عشر : أن غنى العلم أجلُّ من غنى المال ؛ فإن غنى المال غنىً بأمر خارجي عن حقيقة الإنسان ، لو ذهب في ليلة أصبح فقيراً معدماً ، وغنى العلم لا يخشى عليه الفقر ، بل هو في زيادة أبداً ، فهو الغنى العالي حقيقة كما قيل :

غَنيتُ بلا مال عن الناس كلهم … وإن الغنى العالي عن الشيء لا به

الثاني عشر : أن المال يستعبد محبه وصاحبه فيجعله عبداً له ، كما قال النبي ﷺ : « **تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ** ... » (١٣) . والعلم يستعبده لربه وخالقه ، فهو لا يدعوه إلا إلى عبودية الله وحده .

الثالث عشر : أن حب العلم وطلبه أصل كل طاعة ، وحب الدنيا والمال وطلبه أصل كل سيئة .

الرابع عشر : أن قيمةَ الغني مالُه ، وقيمةَ العالم علمُه ، فهذا مُتَقَوَّمٌ بماله فإذا عدم مالــه عدمت قيمته وبقي بلا قيمة ، والعالم لا تزول قيمته بل هي في تضاعف وزيادة دائماً .

الخامس عشر : أن جوهر المال من جنس جوهر البدن ، وجوهر العلم من جــنس جــوهر الروح ، كما قال يونس بن حبيب : علمك من روحك ومالك من بدنك ، والفرق بين الأمــرين كالفرق بين الروح والبدن .

السادس عشر : أن العالم لو عرض عليه بحظه من العلم الدنيا بما فيها ، لم يرضها عوضاً مــن علمه ، والغني العاقل إذا رأى شرف العالم وفضله وابتهاجه بالعلم وكماله به ، يود لو أن له علمه بغناه أجمع .

السابع عشر : أنه ما أطاع الله أحد قط إلا بالعلم ، وعامة من يعصيه إنما يعصيه بالمال .

الثامن عشر : أن العالم يدعو الناس إلى الله بعلمه وحاله ، وجامع المــال يــدعوهم إلى الدنيا بحاله وماله .

التاسع عشر : أن غنى المال قد يكون سبب هلاك صاحبه كثيراً ، فإنه معشوق النفوس ، فإذا رأت من يستأثر بمعشوقها عليها سعت في هلاكه ، كما هو الواقع . وأما غنى العلم فسبب حياة الرجل وحياة غيره به ، والناس إذا رأوا من يستأثر عليهم به ويطلبه أحبوه وخدموه وأكرموه.

العشرون : أن اللذة الحاصلة من غنىً : إما لذة وهمية ، وإما لذة بهيمية ، فإنْ صاحبُه التذَّ بنفس جمعه وتحصيله ، فتلك لذة وهمية خيالية ، وإن التذَّ بإنفاقه في شهواته فهــي لــذة بهيمية. وأما لذة العلم فلذة عقلية روحانية ، وهي تشبه لذة الملائكة وبهجتها ، وفرق مــا بــين اللذتين.

الحادي والعشرون : أن عقلاء الأمم مطبقون على ذم الشَّرِهِ في جمع المال الحريص عليه، وتنَقُّصِهِ والإزراء به . ومطبقون على تعظيم الشّرِهِ في جمع العلم وتحصيله ومدحه ومحبته، ورؤيته بعين الكمال.

الثاني والعشرون : أنهم مطبقون على تعظيم الزاهد في المال ، المعرض عن جمعه ، الذي لا يلتفت إليه ، ولا يجعل قَلْبَهُ عبداً له . ومطبقون على ذم الزاهد في العلم ، الذي لا يلتفت إليه ولا يحرص عليه .

الثالث والعشرون : أن المال يُمدَح صاحبُه بتخليه عنه وإخراجه . والعلم إنما يُمدح بتحليه به واتصافه به .

الرابع والعشرون : أن غنى المال مقرون بالخوف والحزن ، فهو حزين قبل حصوله ، خائف بعد حصوله ، وكلما كان أكثر كان الخوف أقوى . وغنى العلم مقرون بالأمن والفرح والسرور .

الخامس والعشرون : أن الغني بماله لا بد أن يفارقه غناه ويتعذب ويتألم بمفارقته ، والغِنى بالعلم لا يزول ، ولا يتعذب صاحبه ، ولا يتألم ؛ فلذة الغنى بالمال لذة زائلة منقطعة يعقبها الألم، ولذة الغنى بالعلم لذة باقية مستمرة لا يلحقها ألم .

السادس والعشرون : أن استلذاذ النفس وكمالها بالغنى استكمالٌ بعارية مؤداة ، فَتَجَمُّلها بالمال تجمُّلٌ بثوب مستعار ، لا بد أن يرجع إلى مالكه يوماً ما . وأما تجملها بالعلم وكمالها به ، فتجمُّل بصفة ثابتة لها راسخة فيها لا تفارقها.

السابع والعشرون : أن الغنى بالمال هو عين فقر النفس ، والغنى بالعلم هو غناها الحقيقي ؛ فغناها بعلمها هو الغنى ، وغناها بمالها هو الفقر .

الثامن والعشرون : أن من قُدِّمَ وأكرم لماله ، إذا زال مالُه زال تقديمُه وإكرامُه . ومن قُدِّم وأُكرم لعلمه ، لا يزداد إلا تقديماً وإكراماً .

التاسع والعشرون : أن تقديم الرجل لماله هو عين ذمه ، فإنه نداء عليه بنقصه ، وأنه لولا ماله لكان مستحقاً للتأخر والإهانة . وأما تقديمه وإكرامه لعلمه ، فإنه عين كماله ، إذ هو تقديم له بنفسه وبصفته القائمة به لا بأمر خارج عن ذاته .

الوجه الثلاثون : أن طالب الكمال بغنى المال كالجامع بين الضدَّين ، فهو طالب ما لا سبيل له إليه.

وبيان ذلك : أن القدرة صفة كمال ، وصفة المال محبوبة بالذات ، والاستغناء عن الغير أيضاً صفة كمال محبوبة ، فإذا مال الرجل بطبعه إلى السخاوة والجود وفعل المكرمات ، فهذا كمال مطلوب للعقلاء محبوب للنفوس ، وإذا التفت إلى أن ذلك يقتضي خروج المال من يده ، وذلك يوجب نقصه واحتياجه إلى الغير وزوال قدرته ، نفرت نفسه عن السخاء والكرم والجود واصطناع المعروف ، وظن أن كماله في إمساك المال ، وهذه البلية أمر ثابت لعامة الخلق لا ينفكون عنها ، فلأجل ميل الطبع إلى حصول المدح والثناء والتعظيم ، يحب الجود والسخاء والمكارم ، ولأجل فوت القدرة الحاصلة بسبب إخراجه ، والحاجة المنافية لكمال الغنى ، يحب إبقاءَ ماله ويكره السخاء والكرم والجود ، فيبقى قلبه واقفاً بين هذين الداعيين يتجاذبانه ويعتوران عليه ، فيبقى القلب في مقام المعارضة بينهما :

- فمن الناس من يترجح عنده جانب البذل والجود والكرم ، فيؤثره على الجانب الآخر .
- ومنهم من يترجح عنده جانب الإمساك وبقاء القدرة والغنى فيؤثره .فهذان نظران للعقلاء .
- ومنهم من يبلغ به الجهل والحماقة إلى حيث يريد الجمع بين الوجهين ، فَيَعِد الناس بالجود والسخاء والمكارم ، طمعاً منه في فوزه بالمدح والثناء على ذلك ، وعند حضور الوقت لا يفي بما قال فيستحق الذم فهو يبذل بلسانه ويمسك بقلبه ويده فيقع في أنواع القبائح والفضائح .

وإذا تأملت أحوال أهل الدنيا من الأغنياء ، رأيتهم تحت أسر هذه البلية ، وهم غالباً يبكون ويشكون .

وأما غنيُّ العلم ، فلا يعرض له شيء من ذلك ، بل كلما بذله ازداد ببذله فرحاً وسروراً وابتهاجاً ، وإن فاتته لذة أهل الغنى وتمتعهم بأموالهم ، فهم أيضاً قد فاتتهم لذة أهل العلم وتمتعهم بعلومهم وابتهاجهم بها ، فمع صاحب العلم من أسباب اللذة ما هو أعظم وأقوى وأدوم من لذة الغني وتعبه في تحصيله . وجمعُه وضبطُه أقلّ من تعب جامع المال ، فجمعه وألمه دون ألمه ، كما قال تعالى للمؤمنين ، تسلية لهم بما ينالهم من الألم والتعب في طاعته ومرضاته : ﴿ **وَلاَ تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾ [النساء : ١٠٤] .

الحادي والثلاثون : أن اللذة الحاصلة من المال والغنى إنما هي حالُ تجدده فقط . وأما حالُ دوامه فإما أن تذهب تلك اللذة وإما أن تنقص ، ويدل عليه أن الطبع يبقى طالباً لغنى آخر حريصاً عليه ، فهو يحاول تحصيل الزيادة دائماً ، فهو في فقر مستمر غير منقض ، ولو ملك خزائن الأرض ففقره وطلبه وحرصه باق عليه ، فإنه أحد المنهومَيْنِ اللذين لا يشبعان (١٤) ، فهو لا يفارقه ألم الحرص والطلب . وهذا بخلاف غنى العلم والإيمان ؛ فإن لذته في حال بقائه مثلها في حال تجدده ، بل أزيد ، وصاحبها وإن كان لا يزال طالباً للمزيد حريصاً عليه ، فطلبه وحرصه مستصحب للذةِ الحاصل ، ولذةِ المرجوِّ المطلوب ، ولذةِ الطلب وابتهاجه وفرحه به .

الثاني والثلاثون : أن غنى المال يستدعي الإنعام على الناس والإحسان إليهم ؛ فصاحبه إما أن يسد على نفسه هذا الباب ، وإما أن يفتحه عليه :

❍ فإن سده على نفسه اشتهر عند الناس بالبعد من الخير والنفع ، فأبغضوه وذموه واحتقروه ، وكل من كان بغيضاً عند الناس حقيراً لديهم ، كان وصول الآفات والمضرات إليه أسرع من النار في الحطب اليابس ، ومن السيل في منحدره ، وإذا عرف من الخلق أنهم يمقتونه ويبغضونه ولا يقيمون له وزناً ، تألم قلبه غاية التألم ، وأُحضر الهموم والغموم والأحزان .

❍ وإن فتح باب الإحسان والعطاء ، فإنه لا يمكنه إيصال الخير والإحسان إلى كل أحد ، فلا بد من إيصاله إلى البعض وإمساكه عن البعض ، وهذا يفتح عليه باب العداوة والمذمة من المحروم والمرحوم ؛ أما المحروم فيقول : كيف جاد على غيري وبخل علي ؟ وأما المرحوم فإنه

يلتذ ويفرح بما حصل له من الخير والنفع ، فيبقى طامعاً مستشرقاً لنظيره على الدوام ، وهذا قد يتعذر غالباً فيفضي ذلك إلى العدواة الشديدة والمذمة. ولهذا قيل : اتق شر من أحسنت إليه .

وهذه الآفات لا تعرض في غنى العلم ، فإن صاحبه يمكنه بذله للعالم كلهم وإشتراكهم فيه ، والقدر المبذول منه باق لآخذه لا يزول بل يتَّجر به ، فهو كالغني إذا أعطى الفقير رأس مال يتَّجر به حتى يصير غنياً مثله .

الثالث والثلاثون : أن جمع المال مقرون بثلاثة أنواع من الآفات والمحن : نوع قبله ، ونوع عند حصوله ، ونوع بعد مفارقته .

فأما النوع الأول فهو : المشاق والأنكاد والآلام التي لا يحصل إلا بها .

وأما النوع الثاني : فمشقة حفظه وحراسته وتعلق القلب به ، فلا يصبح إلا مهموماً ولا يمسي إلا مغموماً ، فهو بمنزلة عاشق مفرط المحبة قد ظفر بمعشوقه ، والعيون من كل جانب ترمقه ، والألسن والقلوب ترشقه ، فأي عيش ولذة لمن هذه حاله ؟

وقد علم أن أعداءه وحساده لا يفترون عن سعيهم في التفريق بينه وبين معشوقه ، وإن لم يظفروا هم به دونه ، ولكن مقصودهم أن يزيلوا اختصاصه به دونهم ، فإن فازوا به وإلا استووا في الحرمان فزال الاختصاص المؤلم للنفوس .

ولو قدروا على مثل ذلك مع العالم لفعلوه ، ولكنهم لما علموا أنه لا سبيل إلى سلب علمه ، عمدوا إلى جحده وإنكاره ليزيلوا من القلوب محبته وتقديمه والثناء عليه ، فإنْ بهر علمُه وامتنع عن مكابرة الجحود والإنكار ، رموه بالعظائم ونسبوه إلى كل قبيح ليزيلوا من القلوب محبته ، ويُسكنوا موضعها النفرة عنه وبغضه ، وهذا شغل السحرة بعينه ، فهؤلاء سحرة بألسنتهم ، فإن عجزوا له عن شيء من القبائح الظاهرة رموه بالتلبيس والتدليس ، والدوكرة [١٥] والرياء وحب الترفع وطلب الجاه . وهذا القدر من معاداة أهل الجهل والظلم للعلماء مثل الحر والبرد لا بد منه ، فلا ينبغي لمن له مُسْكَةُ [١٦] عقل أن يتأذى به ، إذ لا سبيل له إلى دفعه بحال، فَلْيوطِّنْ نفسَه عليه كما يوطنها على برد الشتاء وحر الصيف .

والنوع الثالث من آفات الغنى : ما يحصل للعبد بعد مفارقته مِنْ تعلُّق قلبه به ، وكونه قد حيل بينه وبينه ، والمطالبة بحقوقه ، والمحاسبة على مقبوضه ومصروفه : من أين اكتسبه ، وفيما ذا أنفقه ؟ .

وغنى العلم والإيمان ، مع سلامته من هذه الآفات ، فهو كفيل بكل لذة وفرحة وسرور ، ولكن لا يُنال إلا على جسر من التعب والصبر والمشقة .

الرابع والثلاثون : أن لذة الغنى بالمال مقرونة بخلطة الناس ، ولو لم يكن إلا خدمه وأزواجه وسراريه وأتباعه ، إذ لو انفرد الغني بماله وحده ، من غير أن يتعلق بخادم أو زوجة أو أحد من الناس ، لم يكمل انتفاعه بماله ولا التذاذه به ، وإذا كان كمال لذته بغناه موقوفاً على اتصاله بالغير ، فذلك منشأ الآفات والآلام ، ولو لم يكن إلا اختلاف الناس وطبائعهم وإراداتهم ؛ فقبيحُ هذا حَسَنُ ذاك ، ومصلحةُ ذاك مفسدةُ هذا ، ومنفعةُ هذا مَضَرَّةُ ذاك وبالعكس . فهو مبتلى بهم ، فلا بد من وقوع النفرة والتباغض والتعادي بينهم وبينه ، فإن إرضاءهم كلهم محال ، وهو جمعٌ بين الضدين ، وإرضاء بعضهم وإسخاط غيره سبب الشر والمعاداة ، وكلما طالت المخالطة ازدادت أسباب الشر والعداوة وقويت ، وبهذا السبب كان الشر الحاصل من الأقارب والعشراء أضعاف الشر الحاصل من الأجانب والبعداء ، وهذه المخالطة إنما حصلت من جانب الغني بالمال . أما إذا لم يكن فيه فضيلة لهم ، فإنهم يتجنبون مخالطته ومعاشرته ، فيستريح من أذى الخلطة والعشرة . وهذه الآفات معدومة في الغني بالعلم .

الخامس والثلاثون : إن المال لا يراد لذاته وعينه ، فإنه لا يحصل بذاته شيء من المنافع أصلاً ، فإنه لا يشبع ولا يروي ولا يدفئ ولا يمنع ، وإنما يراد لهذه الأشياء ، فإنه لما كان طريقاً إليها أريد إرادة الوسائل . ومعلوم أن الغايات أشرف من الوسائل ، فهذه الغايات إذاً أشرف منه ، وهي مع شرفها بالنسبة إليه ناقصة دنيئة ، وقد ذهب كثير من العقلاء إلى أنها لا حقيقة لها وإنما هي دفع الألم فقط ، فإن لبس الثياب مثلاً ، إنما فائدته دفع التألم بالحر والبرد والريح ، وليس فيها لذة زائدة على ذلك ، وكذلك الأكل إنما فائدته دفع ألم الجوع ، ولهذا لو لم يجد ألم الجوع لم يستطب الأكل . وكذلك الشرب مع العطش ، والراحة مع التعب . ومعلوم أن في مزاولة ذلك وتحصيله ألماً وضرراً ، ولكن ضرره وألمه أقل من ضرر ما يُدفع به وألمه ، فيحتمل الإنسان

أخف الضررين دفعاً لأعظمها . وحُكي عن بعض العقلاء أنه قيل له ، وقد تناول قدحاً كريهاً من الدواء : كيف حالك معه ؟ قال : أصبحت في دار بليات أدافع آفات بآفات . وفي الحقيقة فلذات الدنيا من المآكل والمشارب واللبس والمسكن والمنكح من هذا الجنس ، واللذة التي يباشرها الحس ويتحرك لها الجسد ، وهي الغاية المطلوبة له من لذة المنكح والمأكل ؛ شهوتي البطن والفرج ، ليس لهما ثالث ألبتة إلا ما كان وسيلة إليهما وطريقاً إلى تحصيلهما .

وهذه اللذة مُنغَّصة من وجوه عديدة :

- منها أن تصور زوالها وانقضائها وفنائها يوجب تنغصها .
- ومنها أنها ممزوجة بالآفات ومعجونة بالآلام ، ومحتاط بالمخاوف ، وفي الغالب لا تفي آلامها بطيبها ، كما قيل :

قايستُ بين جمالها وفِعالها　　　فإذا الملاحةُ بالقباحة لا تفي

- ومنها أن الأراذل من الناس وسقطهم يشاركون فيها كبراءهم وعقلاءهم ، بل يزيدون عليهم فيها أعظم زيادة وأفحشها ، فنسبتهم فيها إلى الأفاضل كنسبة الحيوانات البهيمية إليهم ، فمشاركة الأراذل وأهل الخسة والدناءة فيها وزيادتهم على العقلاء فيها ، مما يوجب النفرة والإعراض عنها . وكثير من الناس حصل له الزهد في المحبوب والمعشوق منها بهذه الطريق ، وهذا كثير في أشعار الناس ونثرهم ، كما قيل :

سأترك حبها من غير بغضٍ　　　وذاك لكثرة الشركاء فيهِ
إذا وقع الذبابُ على طعامٍ　　　رفعت يدي ونفسي تشتهيهِ
وتجتنب الأسودُ وُرُودَ ماءٍ　　　إذا كان الكلاب يلَغْنَ فيهِ

وقيل لزاهد : ما الذي زهّدك في الدنيا ؟ فقال : خِسَّةُ شركائها ، وقلةُ وفائها ، وكثرةُ جفائها .

وقيل لآخر في ذلك ، فقال : ما مددت يدي إلى شيء منها ، إلا وجدت غيري قد سبقني إليه فأتركه له .

- ومنها أن الالتذاذ بموقعها إنما هو بقدر الحاجة إليها ، والتألم بمطالبة النفس لتناولها ، وكلما كانت شهوة الظفر بالشيء أقوى ، كانت اللذة الحاصلة بوجوده أكمل ، فلما لم تحصل تلك

الشهوة لم تحصل تلك اللذة ، فمقدار اللذة الحاصلة في الحال مساوٍ لمقدار الحاجة والألم والمضرة في الماضي ، وحينئذ يتقابل اللذة والألم المتقدم فيتساقطان ، فتصير اللذة كأنها لم توجد ، ويصير بمنزلة من شق بطن رجل ثم خاطه وداواه بالمراهم ، أو بمنزلة من ضربه عشرة أسواط وأعطاه عشرة دراهم !!

ولا تخرج لذات الدنيا غالباً عن ذلك ، ومثل هذا لا يعد لذة ولا سعادة ولا كمالاً ، بل هو بمنزلة قضاء الحاجة من البول والغائط ، فإن الإنسان يتضرر بثقله ، فإذا قضى حاجته استراح منه ، فأما أن يعد ذلك سعادة وبهجة ولذة مطلوبة فلا .

❍ ومنها أن هاتين اللتين هما آثَرُ اللذاتِ عند الناس ، ولا سبيل إلى نيلهما إلا بما يقترن بهما قبلهما وبعدهما ؛ من مباشرة القاذورات والتألم الحاصل عقيبهما . مثال لذة الأكل :

● فإن العاقل لو نظر إلى طعامه حال مخالطته ريقه وعجنه به لنفرت نفسه منه ، ولو سقطت تلك اللقمة من فيه لنفر طبعه من إعادتها إليه ، ثم إن لذته به إنما تحصل في مجرى نحو الأربع الأصابع ، فإذا فصل عن ذلك المجرى زال تلذذه به ، فإذا استقر في معدته وخالطه الشراب وما في المعدة من الأجزاء الفضلية ، فإنه حينئذ يصير في غاية الخسة ، فإن زاد على مقدار الحاجة أورث الأدواء المختلفة على تنوعها . ولولا أن بقاءه موقوف على تناوله لكان تركه والحالة هذه أليق به ، كما قال بعضهم :

لولا قضاءٌ جرى نزَّهتُ أنملتي　　　عن أن تُلِمَّ بمأكولٍ ومشروبِ

● وأما لذة الوقاع فقدرها أبينُ من أن نذكر آفاته ، ويدل عليه أن أعضاء هذه اللذة هي عورة الإنسان ، التي يُستحيا من رؤيتها وذكرها ، وسترُها أمرٌ فطر الله عليه عباده ، ولا تتم لذة المواقعة إلا بالاطلاع عليها وإبرازها ، والتلطخ بالرطوبات المستقذرة المتولدة منها ، ثم إن تمامها إنما يحصل بانفصال النطفة ، وهي اللذة المقصودة من الوقاع ، وزمنها يشبه الآن الذي لا ينقسم ، فصعوبة تلك المزاولة والمحاولة والمطاولة والمراوضة والتعب لأجل لذة لحظة كَمَدِّ الطرف. فأين مقايسةُ بين هذه اللذة وبين التعب في طريق تحصليها ؟! .

وهذا يدل على أن هذه اللذة ليست من جنس الخيرات والسعادات ، والكمال الذي خلق له العبد ، ولا كمال له بدونه . بل ثَمَّ أمرٌ وراء ذلك كله قد هيئ له العبد ، وهو

لا يفطن له لغفلته عنه وإعراضه عن التفتيش على طريقه ، حتى يصل إلى أن يسوم نفسه مع الأنعام السائمة :

قد هيؤوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهملِ

وموقع هذه اللذات من النفس كموقع لذة البراز من رجل احتبس في موضع ، لا يمكنه القيام إلى الخلاء وصار مضطراً إليه ، فإنه يجد مشقة شديدة وبلاء عظيماً ، فإذا تمكن من الذهاب إلى الخلاء ، وقدر على دفع ذلك الخبيث المؤذي ، وجد لذة عظيمة عند دفعه وإرساله ، ولا لذة هناك إلا راحته من حمل ما يؤذيه حمله .

فَعُلِمَ أن هذه اللذات إما أن تكون دفع آلام ، وإما أن تكون لذات ضعيفة خسيسة مقترنة بآفات ترى مضرتها عليه ، وهذا كما يعقب لذة الوقاع من ضعف القلب وخفقان الفؤاد ، وضعف القوى البدنية والقلبية وضعف الأرواح ، واستيلاء العفونة على كل البدن وإسراع الضعف والخور إليه ، واستيلاء الأخلاط عليه لضعف القوة عن دفعها وقهرها .

ومما يدل على أن هذه اللذات ليست خيرات وسعادات وكمالاً ، أن العقلاء من جميع الأمم مطبقون على ذم من كانت هي نهمته وشغله ومصرف همته وإرادته ، والإزراء به وتحقير شأنه وإلحاقه بالبهائم ، ولا يقيمون له وزناً ، ولو كانت خيرات وكمالاً لكان من صرف إليها همته أكمل الناس .

ومما يدل على ذلك أن القلب الذي قد وجه قصده وإرادته إلى هذه اللذات ، لا يزال مستغرقاً في الهموم والغموم والأحزان ، وما يناله من اللذات في جنب هذه الآلام كقطرة من بحر ، كما قيل : سرورهُ وزنُ حبةٍ وحزنُه قنطار . فإن القلب يجري مجرى مرآة منصوبة على جدار ، وذلك الجدار ممر لأنواع المشتهيات والملذوذات والمكروهات ، وكلما مر به شيء من ذلك ظهر فيه أثره ، فإن كان محبوباً مشتهياً مال طبعه إليه ، فإن لم يقدر على تحصيله تألم وتعذب بفقده ، وإن قدر على تحصيله تألم في طريق الحصول بالتعب والمشقة ومنازعة الغير له ، ويتألم حال حصوله خوفاً من فراقه وبعد فراقه خوفاً على ذهابه . وإن كان مكروهاً له و لم يقدر على دفعه تألم بوجوده ، وإن قدر على دفعه اشتغل بدفعه ففاته مصلحة راجحة الحصول ، فيتألم لفواتها ، فَعُلِمَ أن هذا القلب أبداً مستغرق في بحار الهموم والغموم والأحزان ، وأن نفسه تضحك عليه

وترضيه بوزن ذرة من لذته ، فيغيب بها عن شهوده القناطير من ألمه وعذابه ، فإذا حيل بينه وبين تلك اللذة و لم يبق له إليها سبيل ، تجرد ذلك الألم وأحاط به واستولى عليه من كل جهاته .

فقل ما شئت في حال عبد قد غُيِّبَ عنه سعدُه وحظوظُه وأفراحُه ، وأُحضِرَ شقوتَه وهمومَه وغمومَه وأحزانَه !!

وبين العبد وبين هذه الحال أن ينكشف الغطاء ، ويُرفع الستر وينجلي الغبار ، ويُحصَّل ما في الصدور ، فإذا كانت هذه غاية اللذات الحيوانية ، التي هي غاية جمع الأموال وطلبها ، فما الظن بقدر الوسيلة ؟! .

وأما غنى العلم والإيمان ، فدائم اللذة متصل الفرحة ، مُقتضٍ لأنواع المسرة والبهجة ، لا يزول فيُحزِن ولا يفارق فيؤلِم ، بل أصحابه كما قال الله تعالى فيهم : ﴿ ... **لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [يونس : ٦٢] .

السادس والثلاثون : إن غنى المال يُبَغِّضُ الموت ولقاء الله ، فإنه لحبه لماله يكره مفارقته ، ويحب بقاءه ليتمتع به ، كما شهد به الواقع . وأما العلم فإنه يحبب للعبد لقاء ربه ، ويزهده في هذه الحياة النكدة الفانية .

السابع والثلاثون : إن الأغنياء يموت ذكرهم بموتهم ، والعلماء يموتون ويبقى ذكرهم ، كما قال أمير المؤمنين في هذا الحديث :

« **مات خُزَّان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر** »

فخزان الأموال أحياء كأموات ، والعلماء بعد موتهم أموات كأحياء .

الثامن والثلاثون : إن نسبة العلم إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن ، فالروح ميتةٌ حياتُها بالعلم ، كما أن الجسد ميت حياته بالروح ، فالغنى بالمال غايته أن يزيد في حياة البدن ، وأما العلم فهو حياة القلوب والأرواح ، كما تقدم تقريره .

التاسع والثلاثون : إن القلب ملك البدن ، والعلم زينته وعُدَّته وماله ، وبه قوام ملكه . والملك لا بد له من عدد وعدة ومال وزينة ، فالعلم هو مركبه وعدته وجماله . وأما المال فغايته أن

يكون زينة وجمالاً للبدن ، إذا أنفقه في ذلك . فإذا خزنه ولم ينفقه لم يكن زينة ولا جمالاً ، بل نقصاً ووبالاً . ومن المعلوم أن زينة الملك به ، وما به قوام ملكه أجلُّ وأفضل من زينة رعيته وجمالهم ، فقوام القلب بالعلم كما أن قوام الجسم بالغذاء .

الوجه الأربعون : أن القدر المقصود من المال هو ما يكفي العبد ويقيمه ويدفع ضـــرورته ، حتى يتمكن من قضاء جهازه ومن التزود لسفره إلى ربه عزَّ وجلَّ ، فإذا زاد على ذلـــك شـــغله وقطعه عن السفر وعن قضاء جهازه وتعبية زاده ، فكان ضرره عليه أكثر من مصلحته ، وكلمـــا ازداد غناه به ازداد تثبطاً وتخلفاً عن التجهز لما أمامه .

وأما العلم النافع فكلما ازداد منه ازداد في تعبية الزاد وقضاء الجهاز وإعداد عدة الـــسير ، والله الموفق وبه الاستعانة ولا حول ولا قوة إلا به ، فعدة هذا السفر هو العلم والعمل ، وعدة الإقامة جمع الأموال والادخار ، ومن أراد شيئاً هيأ له عدته . قال تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ** ﴾ [التوبة : ٤٦] .

قوله : « **محبة العلم – أو العالم – دين يدان بها** »

لأن العلم ميراث الأنبياء ، والعلماء ورثتهم ؛ فمحبة العلم وأهله محبة لميراث الأنبياء وورثتهم ، وبغض العلم وأهله بغض لميراث الأنبياء وورثتهم . فمحبة العلم من علامات السعادة ، وبغض العلم من علامات الشقاوة . وهذا كله إنما هو في علم الرسل الذي جاؤوا به وورثوه للأمة ، لا في كل ما يسمى علماً .

وأيضاً فإن محبة العلم تحمل على تعلمه واتباعه ، وذلك هو الدين ، وبغضه ينهى عـــن تعلمه واتباعه وذلك هو الشقاء والضلال ، وأيضاً فإن الله سبحانه عليم يحب كل عليم ، وإنمـــا يضع علمه عند من يحبه ؛ فمن أحب العلم وأهله فقد أحب ما أحب الله ، وذلك مما يدان به .

قوله : « **العلم يكسب العالم الطاعة في حياته وجميل الأحدوثة بعد مماته** »

يكسبه ذاك ، أي : يجعله كسباً له ويورثه إياه . ويقال : كسبه ذلك عزّاً وطاعة وأكسبه : لُغَتان . ومنه حديث خديجة رضي الله عنها : « **إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ** » (١٧) ، روي « تكسب » بفتح التاء وضمها ، ومعناه : تكسب المال والغنى . هذا هو الصواب . وقالت طائفة : مَنْ رواه بضمها فذلك مِنْ أكسبه مالاً وعزّاً ، ومن رواه بفتحها فمعناه : تكسب أنت المالَ المعدومَ بمعرفتك وحذقك بالتجارة . ومعاذ الله من هذا الفهم ، وخديجة أجلُّ قدراً من تكلمها بهذا في هذا المقام العظيم ، أن تقول لرسول الله ﷺ : أبشر فوالله لا يخزيك الله ، إنك تكسب الدرهم والدينار وتحسن التجارة !! . ومثل هذه التحريفات إنما تذكر لئلا يُغترَّ بها في تفسير كلام الله ورسوله .

والمقصود أن قوله : « **العلم يكسب العالم الطاعة في حياته** » أي : يجعله مطاعاً ، لأن الحاجة إلى العلم عامة لكل أحد ، للملوك فمن دونهم ، فكل أحد محتاج إلى طاعة العالم ، فإنه يأمر بطاعة الله ورسوله ، فيجب على الخلق طاعته . قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ** ... ﴾ [النساء : ٥٩] وفُسّر ﴿ **أُوْلِي الأَمْرِ** ﴾ بالعلماء . قال ابن عباس : هم الفقهاء والعلماء أهل الدين الذين يعلمون الناس دينهم أوجب الله تعالى طاعتهم . وهذا قول مجاهد والحسن والضحاك وإحدى الروايتين عن الإمام أحمد . وفُسّروا بالأمراء ، وهو قول ابن زيد وإحدى الروايتين عن ابن عباس وأحمد ، والآية تتناولها جميعاً ؛ فطاعة ولاة الأمر واجبة إذا أمروا بطاعة الله ورسوله ، وطاعة العلماء كذلك ؛ فالعالم بما جاء به الرسول العاملُ به ، أطوع في أهل الأرض من كل أحد ، فإذا مات أحيا الله ذكره ونشر له في العالمين أحسن الثناء ، فالعالم بعد وفاته ميت وهو حي بين الناس ، والجاهل في حياته حي وهو ميت بين الناس . كما قيل :

وفي الجهل قبل الموت موتٌ لأهله ... وأجسامهم قبل القبور قبورُ
وأرواحهم في وحشة من جسومهمْ ... وليس لهم حتى النشور نشورُ

وقال آخر

قد مات قومٌ وما ماتت مكارمُهمْ ... وعاش قومٌ وهم في الناس أمواتُ

وقال آخر :

وما دام ذكر العبد بالفضل باقياً فذلك حي وهو في التُرْبِ هالكُ

ومن تأمل أحوال أئمة الإسلام ، كأئمة الحديث والفقه ، كيف هم تحت التراب وهم في العالمين كأنهم أحياء بينهم ، لم يفقدوا منهم إلا صورهم ، وإلا فذكرهم وحديثم والثناء عليهم غير منقطع ، وهذه هي الحياة حقّاً حتى عد ذلك حياة ثانية . كما قال المتنبي :

ذِكْرُ الفتى عيشُه الثاني ، وحاجته ما قاته ، وفُضولُ العيشِ أشغالُ (١٨)

قوله : « **وصنيعة المال تزول بزواله** »

يعني أن كل صنيعة صنعت للرجل من أجل ماله : من إكرام ومحبة وخدمة ، وقضاء حوائج وتقديم واحترام وتولية ، وغير ذلك . فإنها إنما هي مراعاة لماله ؛ فإذا زال ماله وفارقه زالت تلك الصنائع كلها ، حتى إنه ربما لا يُسَلِّمُ عليه من كان يدأب في خدمته ويسعى في مصالحه !! . وقد أكثر الناس من هذا المعنى في أشعارهم وكلامهم ، وفي مثل قولهم : « **مَنْ ودَّكَ لأمر مَلَّكَ عند انقضائه** » . قاله بعض العرب .

ومن هذا ما قيل : « **إذا أكرمك الناس لمال أو سلطان ، فلا يعجبنك ذلك ، فإن زوال الكرامة بزوالهما ، ولكن ليعجبك إن أكرموك لعلم أو دين** » . وهذا أمر لا يُنكر في الناس ، حتى إنهم ليكرمون الرجل لثيابه ، فإذا نزعها لم ير منهم تلك الكرامة وهو هو . قال مالك : بلغني أن أبا هريرة دعي إلى وليمة ، فأتى فَحُجب ، فرجع فلبس غير تلك الثياب ، فأُدخل ، فلما وُضع الطعام أدخل كُمَّه في الطعام ، فعوتب في ذلك ، فقال : إن هذه الثياب هي التي أُدخلت ، فهي تأكل! حكاه ابن مزين الطيطلي في كتابه .

وهذا بخلاف صنيعة العلم فإنها لا تزول أبداً ، بل كل مآلها في زيادة ، ما لم يسلب ذلك العالم علمه . وصنيعة العلم والدين أعظم من صنيعة المال ، لأنها تكون بالقلب واللسان والجوارح ، فهي صادرة عن حب وإكرام لأجل ما أودعه الله تعالى إياه من علمه ، وفضَّله به على غيره .

وأيضاً فصنيعة العلم تابعة لنفس العالم وذاته ، وصنيعة المال تابعة لماله المنفصل عنه . وأيضاً فصنيعة المال صنيعة معاوضة ، وصنيعة العلم والدين صنيعة حب وتقرب وديانة . وأيضاً فصنيعة المال تكون مع البر والفاجر والمؤمن والكافر ، وأما صنيعة العلم والدين فلا تكون إلا مع أهل ذلك .

وقد يراد من هذا أيضاً معنى آخر وهو : إن من اصطنعت عنده صنيعة بمالك ، إذا زال ذلك المال وفارقه عدمت صنيعتك عنده ، وأما من اصطنعت إليه صنيعة علم وهدى ، فإن تلك الصنيعة لا تفارقه أبداً ، بل ترى في كل وقت كأنك أسديتها إليه حينئذ .

قوله : « **مات خُزَّان الأموال وهم أحياء** » قد تقدم بيانه .

وكذا قوله : « **والعلماء باقون ما بقي الدهر** » .

قوله : « **أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة** »

المراد بأمثالهم صورهم العلمية ووجودهم المثالي ، أي : وإن فُقِدَتْ ذواتُهم فصورهم وأمثالهم في القلوب لا تفارقها ، وهذا هو الوجود الذهني العلمي ، لأن محبة الناس لهم واقتداءهم بهم وانتفاعهم بعلومهم ، يوجب أن لا يزالوا نصب عيونهم وقبلة قلوبهم ، فهم موجودون معهم وحاضرون عندهم ، وإن غابت عنهم أعيانهم ، كما قيل :

ومن عجبٍ أني أَحِنُّ إليهمُ وأسأل عنهمْ مَنْ لقيتُ وهُمْ معي !!

وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويشـــتاقهم قلبي وهم بين أضلعي !!

وقال آخر :

ومِنْ عجبٍ أن يشكوَ البُعْدَ عاشقٌ وهل غاب عن قلب المحب حبيبُ ؟!

خيالُك في عيني وذكرُك في فمي ومثواك في قلبـــي فأين تغيـــبُ ؟!

قوله : « **آه إن ها هنا علماً – وأشار إلى صدره –** »

يدل على جواز إخبار الرجل بما عنده من العلم والخير ، ليُقتبس منه وليُنتفع به . ومنه قول يوسف الصديق ﷺ : ﴿ ... **اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾ [يوسف : ٥٥] فمن أخبر عن نفسه بمثل ذلك ليُكثِّر به ما يحبه الله ورسوله من الخير فهو محمود ، وهذا غير من أخبر بذلك ليتكثر به عند الناس ويتعظَّم ؛ فهذا يجازيه الله بمقت الناس له وصغره في عيونهم ، والأول يكثِّره في قلوبهم وعيونهم و « **إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ** ... » . وكذلك إذا أثنى الرجل على نفسه ليخلص بذلك من مظلمة وشر ، أو ليستوفي بذلك حقّاً له يحتاج فيه إلى التعريف بحاله ، أو ليقطع عنه أطماع السفلة فيه ، أو عند خطبته إلى من لا يعرف حاله . والأحسن في هذا أن يُوكِّل من يعرِّف به وبحاله ، فإن لسان ثناء المرء على نفسه قصير ، وهو في الغالب مذموم لما يقترن به من الفخر والتعاظم .

ثم ذكر أصناف حملة العلم الذين لا يصلحون لحمله ، وهم أربعة :

قوله : « **لقناً غير مأمون عليه ، يستعمل آلة الدين للدنيا** »

أحدهم : من ليس هو بمأمون عليه ، وهو الذي أوتي ذكاء وحفظاً ، ولكن مع ذلك لم يؤت زكاء ، فهو يتخذ العلم – الذي هو آلة الدين – آلةَ الدنيا ، يستجلبها به ويتوسل بالعلم إليها ، ويجعل البضاعة التي هي متجر الآخرة متجراً للدنيا ، وهذا غير أمين على ما حمله من العلم ، ولا يجعله الله إماماً فيه قط ، فإن الأمين هو الذي لا غرض له ولا إرادة لنفسه إلا اتباع الحق وموافقته ، فلا يدعو إلى إقامة رياسته ولا دنياه .

وهذا الذي قد اتخذ بضاعة الآخرة ومتجرها متجراً للدنيا ، قد خان الله وخان عباده وخان دينه. فلهذا قال : « **غير مأمون عليه** » .

وقوله : « **يستظهر بحجج الله على كتابه وبنعمه على عباده** »

هذه صفة هذا الخائن : إذا أنعم الله عليه استظهر بتلك النعمة على الناس ، وإذا تعلم علماً استظهر به على كتاب الله ، ومعنى استظهاره بالعلم على كتاب الله : تحكيمه عليه وتقديمه وإقامته دونه . وهذه حال كثير ممن يحصل له علم ، فإنه يستغني به ويستظهر به ويحكمه ، ويجعل كتاب الله تبعاً له : يقال : استظهر فلان على كذا بكذا أي ظهر عليه به

وتقدم وجعله وراء ظهره. وليست هذه حال العلماء ، فإن العالم حقّاً يستظهر بكتاب الله على كل ما سواه ، فيقدِّمه ويحكِّمه ويجعله عياراً على غيره مهيمناً عليه ، كما جعله الله تعالى كذلك . فالمستظهر به موفق سعيد ، والمستظهر عليه مخذول شقي ، فمن استظهر على الشيء فقد جعله خلف ظهره ، مقدماً عليه ما استظهر به . وهذا حال من اشتغل بغير كتاب الله عنه ، واكتفى بغيره منه ، وقدَّم غيره وأخرَّه .

* * *

والصنف الثاني من حملة العلم – قوله : « **أو منقاداً لأهل الحق لا بصيرة له في أحنائه** » – :

« المنقاد » الذي لم يثلج له صدره و لم يطمئن به قلبه ، بل هو ضعيف البصيرة فيه ، لكنه منقاد لأهله . وهذه حال أتباع الحق من مقلديهم ، وهؤلاء وإن كانوا على سبيل نجاة فليسوا من دعاة الدين ، وإنما هم من مكثري سواد الجيش لا من أمرائه وفرسانه .

والمنقاد منفعل ، من قاده يقوده ، وهو مطاوع الثلاثي ، وأصله منقيد كمكتسب ، ثم أُعِلَّت الياء ألفاً لحركتها بعد فتحة ، فصار منقاداً . تقول : قدته فانقاد : أي لم يمتنع . والأحناء : جمع « حِنْو » بوزن : عِلْم ، وهي : الجوانب والنواحي ، والعرب تقول : أزجر أحناء طيرك ، أي : أمسك نواحي خفتك وطيشك يميناً وشمالاً وأماماً وخلفاً . قال لبيد :

فقلتُ : ازدجرْ أحناءَ طيرك واعلمنْ   بأنك إنْ قدَّمت رِجْلكَ عاثرُ

والطير هنا : الخفة والطيش .

وقوله : « **ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة** » :

هذا لضعف علمه وقلة بصيرته . إذا وردت على قلبه أدنى شبهة قدحت فيه الشك والريب ، بخلاف الراسخ في العلم ، لو وردت عليه من الشبه بعدد أمواج البحر ما أزالت يقينه ولا قدحت فيه شكّاً ، لأنه قد رسخ في العلم فلا تستفزه الشبهات ، بل إذا وردت عليه ردها حَرَسُ العلم وجيشُه مغلولةً مغلوبة .

والشبهة واردٌ يردُ على القلب يحول بينه وبين انكشاف الحق له ، فمتى باشر القلبُ حقيقة العلم لم تؤثر تلك الشبهة فيه ، بل يقوى علمه ويقينه بردها ومعرفة بطلانها ، ومتى لم يباشر حقيقة العلم بالحق قلبُه ، قدحت فيه الشك بأول وهلة ، فإن تداركها وإلا تتابعت على قلبه أمثالها حتى يصير شاكّاً مرتاباً .

والقلب يتوارده جيشان من الباطل : جيش شهوات الغي ، وجيش شبهات الباطل ؛ فأيما قلب صغا إليها وركن إليها تشربها وامتلأ بها ، فينضح لسانه وجوارحه بموجبها ، فإن أشرب شبهات الباطل ، تفجرت على لسانه الشكوك والشبهات والإيرادات ، فيظن الجاهل أن ذلك لسعة علمه ، وإنما ذلك من عدم علمه ويقينه . وقال لي شيخ الإسلام ﷺ ، وقد جعلت أُوردُ عليه إيراداً بعد إيراد : « **لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها ، فلا ينضح إلا بها ، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة ، تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها ، فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته ، وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليها ، صار مقرّاً للشبهات** » أو كما قال . فما أعلم أني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك .

وإنما سميت الشبهة شبهة : لاشتباه الحق بالباطل فيها ، فإنها تلبس ثوب الحق على جسم الباطل ، وأكثر الناس أصحاب حس ظاهر ، فينظر الناظر فيما أُلبستْه من اللباس فيعتقد صحتها . وأما صاحب العلم واليقين فإنه لا يغتر بذلك ، بل يجاوز نظره إلى باطنها وما تحت لباسها ، فينكشف له حقيقتها . ومثال هذا : الدرهم الزائف ، فإنه يغتر به الجاهل بالنقد ، نظراً إلى ما عليه من لباس الفضة . والناقد البصير يجاوز نظره إلى ما وراء ذلك ، فيطلع على زيفه . فاللفظ الحسن الفصيح هو للشبهة بمنـــزلة اللباس من الفضة على الدرهم الزائف ، والمعنى كالنحاس الذي تحته .

وكم قد قتل هذا الاعتذار من خلق لا يحصيهم إلا الله !! وإذا تأمل العاقل الفطن هذا القدر وتدبره ، رأى أكثر الناس يقبل المذهب والمقالة بلفظ ، ويردها بعينها بلفظ آخر . وقد رأيت أنا من هذا في كتب الناس ما شاء الله ، وكم رُدَّ من الحق بتشنيعه بلباس من اللفظ قبيح !!. وفي مثل هذا قال أئمة السنة ، منهم الإمام أحمد وغيره : « **لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة شُنِّعت** » فهؤلاء الجهمية يسمون إثبات صفات الكمال لله ؛ من حياته وعلمه وكلامه وسمعه وبصره وسائر ما وصف به نفسه « تشبيهاً وتجسيماً » ومن أثبت ذلك « مشبهاً » . فلا ينفر من هذا المعنى الحق لأجل هذه التسمية الباطلة ، إلا العقول الصغيرة القاصرة خفافيش البصائر . وكل أهل نِحْلَة ومقالة يكسون نحلتهم ومقالتهم أحسن ما يقدرون عليه من الألفاظ ، ومقالةَ مخالفيهم

أقبحَ ما يقدرون عليه من الألفاظ ، ومن رزقه الله بصيرة فهو يكشف بها حقيقة ما تحت الألفاظ من الحق والباطل ولا يغتر باللفظ . كما قيل في هذا المعنى :

تقول : هذا جنى النحل تمدحهُ وإن تشأْ قلتَ : ذا قيء الزنابيرِ
مدحاً وذمّاً وما جاوزت وصفهما والحق قد يعتريه سوء تعبيرِ

فإذا أردت الاطلاع على كنه المعنى : هل هو حق أو باطل ؟ فجرِّده من لباس العبارة ، وجرد قلبك عن النفرة والميل ، ثم أعط النظر حقه ، ناظراً بعين الإنصاف ، ولا تكن ممن ينظر في مقالة أصحابه ومن يحسن ظنه به نظراً تامّاً بكل قلبه ، ثم ينظر في مقالة خصومه ومن يسيء ظنه به كنظر الشزر والملاحظة ، فالناظر بعين العداوة يرى المحاسن مساوئ ، والناظر بعين المحبة عكسه ، وما سلم من هذا إلا من أراد الله كرامته وارتضاه لقبول الحق . وقد قيل :

وعينُ الرضا عن كل عيب كليلةٌ كما أن عين السخط تبدي المساويا

وقال آخر :

نظروا بعين عداوة لو أنها عينُ الرضا لاستحسنوا ما استقبحوا

فإذا كان هذا في نظر العين ، الذي يدرك المحسوسات ولا يتمكن من المكابرة فيها ، فما الظن بنظر القلب الذي يدرك المعاني التي هي عرضة للمكابرة ؟ والله المستعان على معرفة الحق وقبوله ، ورد الباطل وعدم الاغترار به .

وقوله : « **بأول عارض من شبهة** »

هذا دليل ضعف عقله ومعرفته ، إذ تؤثر فيه البداءات ويُستَفَز بأوائل الأمور ، بخلاف الثابت التام العاقل ، فإنه لا تستفزه البداءات ولا تزعجه وتقلقه ، فإن الباطل له دهشة وروعة في أوله ، فإذا ثبت له القلب رُدّ على عقبيه ، والله يحب من عنده العلم والأناة ، فلا يعجل بل يثبت حتى يعلم ويستيقن ما ورد عليه ، ولا يعجل بأمر من قبل استحكامه ، فالعجلة والطيش من الشيطان ، فمن ثبت عند صدمة البداءات استقبل أمره بعلم وحزم ، ومن لم يثبت لها استقبله

بعجلة وطيش ؛ وعاقبته الندامة ، وعاقبة الأول حمد أمره ، ولكن للأول آفة متى قرنت بالحزم والعزم نجا منها ، وهي : الفوت . فإنه لا يُخاف من التثبيت إلا الفوت ، فإذا اقترن به العزم والحزم تم أمره . ولهذا في الدعاء الذي رواه الإمام أحمد والنسائي عن النبي ﷺ : « **اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ** » [١٩] ، هاتان الكلمتان هما جماع الفلاح ، وما أُتي العبد إلا من تضييعهما أو تضييع أحدهما ، فما أتي أحد إلا من باب العجلة والطيش واستفزاز البداءات له ، أو من باب التهاون وتضييع الفرصة بعد مواتاتها . فإذا حصل الثبات أولاً ، والعزيمة ثانياً ، أفلح كل الفلاح والله ولي التوفيق .

*** *** ***

الصنف الثالث : قوله : « **أو منهوماً باللذات ، سلس القياد للشهوات** » :

رجل همته في نيل لذته ، فهو منقاد لداعي الشهوة أين كان ، ولا ينال درجة وراثة النبوة مع ذلك . ولا ينال العلم إلا بهجر اللذات وتطليق الراحة . قال مسلم في صحيحه : قال يحيى بن أبي كثير: « **لاَ يُنَالُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ** » . وقال إبراهيم الحربي : « **أجمع عقلاء كل أمة أن النعيم لا يدرك بالنعم ، ومن آثر الراحة فاتته الراحة** » فما لصاحب اللذات وما لدرجة وراثة الأنبياء !!

فدع عنك الكتابة لستَ منها ولو سوَّدت وجهك بالمدادِ

فإن العلم صناعة القلب وشغله ، فما لم تتفرغ لصناعته وشغله لم تنلها ، وله وجهة واحدة فإذا وجهت وجهته إلى اللذات والشهوات انصرفت عن العلم ، ومن لم يُغلّب لذة إدراكه العلم وشهوته على لذة جسمه وشهوة نفسه لم ينل درجة العلم أبداً ، فإذا صارت شهوته في العلم ولذته في إدراكه رُجِيَ له أن يكون من جملة أهله . ولذة العلم لذة عقلية روحانية من جنس لذة الملائكة ، ولذة شهوات الأكل والشراب والنكاح لذة حيوانية ، يشارك الإنسان فيها الحيوان ، ولذة الشر والظلم والفساد والعلو في الأرض شيطانية ، يشارك صاحبها فيها إبليس وجنوده . وسائر اللذات تبطل بمفارقة الروح البدن ، إلا لذة العلم والإيمان فإنها تكمل بعد المفارقة ، لأن البدن وشواغله كان ينقصها ويقللها ويحجبها ، فإذا انطوت الروح عن البدن ، التذت لذة كاملة بما حصلته من العلم

النافع والعمل الصالح ، فمن طلب اللذة العظمى وآثر النعيم المقيم ، فهو في العلم والإيمان اللذين بهما كمال سعادة الإنسان .

وأيضاً فإن تلك اللذات سريعة الزوال ، وإذا انقضت أعقبت همّاً وغمّاً وألماً ، يحتاج صاحبها أن يداويه بمثلها دفعاً لألمه ، وربما كان معاودته لها مؤلماً له كريهاً إليه ، لكن يحمله عليه مداواة ذلك الغم والهم. فأين هذا من لذة العلم ولذة الإيمان بالله ومحبته ، والإقبال عليه والتنعم بذكره ؟! فهذه هي اللذة الحقيقية .

الصنف الرابع : قوله : « **أو مغرى بجمع الأموال والادخار** »

مَنْ حرصُه وهمتُه في جمع الأموال وتثميرها وادخارها ، فقد صارت لذته في ذلك ، وفنِيَ بها عما سواه ، فلا يرى شيئاً أطيب له مما هو فيه ، فأين هذا ودرجة العلم ؟!

فهؤلاء الأصناف الأربعة : ليسوا من دعاة الدين ، ولا من أئمة العلم ، ولا من طلبته الصادقين في طلبه . ومن تعلق منهم بشيء منه ؛ فهو من المتسلقين عليه ، المتشبهين بحملته وأهله ، المدعين لوصاله المبتوتين من حباله . وفتنةُ هؤلاء فتنةٌ لكل مفتون ، فإن الناس يتشبهون بهم لما يظنون عندهم من العلم ، ويقولون : لسنا خيراً منهم ، ولا نرغب بأنفسنا عنهم. فهم حجة لكل مفتون . ولهذا قال فيهم بعض الصحابة الكرام : « **احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون** » .

وقوله : « **أقرب شبهاً بهم الأنعام السائمة** »

وهذا التشبيه مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ ... **إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾ [الفرقان : ٤٤] فما أقصر ﷻ على تشبيههم بالأنعام ، حتى جعلهم أضل سبيلاً منهم . والسائمة : الراعية . وشبَّه أميرُ المؤمنين هؤلاء بها لأن همتهم في سعي الدنيا وحطامها ، والله تعالى يشبه أهل الجهل والغي تارة بالأنعام ، وتارة بالحُمُر . وهذا تشبيه لمن تعلم علماً و لم يعقله و لم يعمل به ، فهو كالحمار الذي يحمل أسفاراً . وتارة بالكلب : وهذا لمن انسلخ عن العلم وأخلد إلى الشهوات والهوى.

وقوله : « **كذلك يموت العلم بموت حامليه** »

هذا من قول النبي ﷺ في حديث عبد الله بن عمرو وعائشة ﷺ وغيرهما : « **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالاً فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا** » (رواه البخاري في صحيحه) [٢٠] فذهاب العلم إنما هو بذهاب العلماء . قال ابن مسعود يوم مات عمر ؓ : « **إني لأحسب تسعة أعشار العلم قد ذهب** » وقد تقدم قول عمر ؓ : « **موت ألف عابد أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه** » .

❊ ❊ ❊

وقوله : « **اللهم بلى ! لا تخلو الأرض من مجتهد قائم لله بحجة** »

ويدل عليه الحديث الصحيح عن النبي ﷺ : « **لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ** » [٢١] . ويدل عليه أيضاً ما رواه الترمذي عن قتيبة حدثنا حماد بن يحيى الأبح عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « **مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ لاَ يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ** » قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب [٢٢] ، ويروى عن عبد الرحمن ابن مهدي أنه كان يثبت حماد بن يحيى الأبح ، وكان يقول : هو من شيوخنا . وفي الباب عن عمار وعبد الله بن عمرو .

فلو لم يكن في أواخر الأمة قائم بحجج الله مجتهد لم يكونوا موصوفين بهذه الخيرية . وأيضاً فإن هذه الأمة أكمل الأمم وخير أمة أُخرجت للناس ، ونبيها خاتم النبيين لا نبي بعده ، فجعل الله العلماء فيها ، كلما هلك عالم خلفه عالم ، لئلا تطمس معالم الدين وتخفى أعلامه . وكان بنو إسرائيل كلما هلك نبي خلفه نبي فكانت تسوسهم الأنبياء . والعلماء لهذه الأمة كالأنبياء في بني إسرائيل . وأيضاً ففي الحديث الآخر : « **يحمل هذا العلم من كل خلف عُدوله ، ينفون عنه : تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين** » [٢٣] . وهذا يدل على أنه لا يزال محمولاً في القرون قرناً بعد قرن . وفي صحيح أبي حاتم من حديث الخولاني قال : قال رسول الله ﷺ : « **لاَ يَزَالُ اللَّهُ يَغْرِسُ فِي هَذَا الدِّينِ غَرْسًا يَسْتَعْمِلُهُمْ فِيهِ بِطَاعَتِهِ إِلَى يَوْمِ**

الْقِيَامَة » [٢٤] ، وغَرْسُ الله هم أهل العلم والعمل ، فلو خلت الأرض من عالم خلت من غرس الله . ولهذا القول حجج كثيرة لها موضع آخر .

وقوله : « **لكيلا تبطل حجج الله وبيناته** »

أي : لكيلا تذهب من بين يدي الناس وتبطل من صدورهم ، وإلا فالبطلان محال عليها لأنها ملزوم ما يستحيل عليه البطلان .

فإن قيل : فما الفرق بين الحجج والبينات ؟ .

قيل : الفرق بينهما أن الحجج هي الأدلة العلمية التي يعقلها القلب وتسمع بالأذن ، قال تعالى في مناظرة سيدنا إبراهيم لقومه وتبيين بطلان ما هم عليه بالدليل العلمي : ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ** ... ﴾ [الأنعام : ٨٣] قال ابن زيد : بعلم الحجة . وقال تعالى : ﴿ **فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِي** ... ﴾ [آل عمران : ٢٠] . وقال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ** ... ﴾ [الشورى : ١٦] .

والحجة : هي اسم لما يُحْتَج به من حق وباطل . قال تعالى : ﴿ ... **لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ** ... ﴾ [البقرة : ١٥٠] فإنهم يحتجون عليكم بحجة باطلة ﴿ ... **فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي** ... ﴾ [البقرة : ١٥٠] وقال تعالى : ﴿ **وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [الجاثية : ٢٥] . والحجة المضافة إلى الله هي الحق ، وقد تكون الحجة بمعنى : المخاصمة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ** ... ﴾ [الشورى : ١٥] . أي قد وضح الحق واستبان وظهر ، فلا خصومة بيننا بعد ظهوره ولا مجادلة ، فإن الجدال شريعة موضوعة للتعاون على إظهار الحق ، فإذا ظهر الحق ولم يبق به خفاء فلا فائدة في الخصومة . والجدال على بصيرة مخاصمة المنكر ، ومجادلته عناء لا غنى فيه ، هذا معنى هذه الآية .

وقد يقع في وهم كثير من الجهال أن الشريعة لا احتجاج فيها ، وأن المرسل بها صلوات الله وسلامه عليه لم يكن يحتج على خصومه ولا يجادلهم ، ويظن جهال المنطقيين وفروخ اليونان أن الشريعة خطاب للجمهور ولا احتجاج فيها ، وأن الأنبياء دعوا الجمهور بطريق الخطابة ، والحجج للخواص ، وهم أهل البرهان ، يعنون نفوسهم ومن سلك طريقتهم !! . وكل هذا من جهلهم بالشريعة والقرآن ، فإن القرآن مملوء من الحجج والأدلة والبراهين في مسائل التوحيد ، وإثبات الصانع والمعاد ، وإرسال الرسل وحدوث العالم ، فلا يذكر المتكلمون وغيرهم دليلاً صحيحاً على ذلك إلا وهو في القرآن بأفصح عبارة ، وأوضح بيان ، وأتم معنى وأبعده عن الإيرادات والأسئلة . وقد اعترف بهذا حُذَّاق المتكلمين من المتقدمين والمتأخرين . قال أبو حامد في أول « الإحياء » : « فإن قلت : فَلِمَ لَمْ تُورد في أقسام العلم الكلامَ والفلسفةَ وتبين أنهما مذمومان أو ممدوحان ؟ . فاعلم أن حاصل ما يشتمل عليه الكلام من الأدلة التي يُنتفَعُ بها ، فالقرآن والأخبار مشتملة عليه ، وما خرج عنهما فهو : إما مجادلة مذمومة ، وهي من البدع كما سيأتي بيانه ، وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق ، وتطويل بنقل المقالات التي أكثرها ترهات وهذيانات تزدريها الطباع وتمجها الأسماع ، وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين ولم يكن شيء منه مألوفاً في العصر الأول ، ولكن تغير الآن حكمه إذ حدثت البدع الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة ، فلفقت لها شُبهاً ، ورتبت لها كلاماً مؤلفاً ، فصار ذلك المحظور بحكم الضرورة مأذوناً فيه » . وقال الرازي في كتابه « أقسام الذات » : « لقد تأملت الكتب الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تروي غليلاً ولا تشفي عليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن . اقرأ في الإثبات : ﴿ ... **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ** ... ﴾ [فاطر : ١٠] ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** ﴾ [طه : ٥] واقرأ في النفي : ﴿ ... **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ... ﴾ [الشورى : ١١] ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي » . وهذا الذي أشار إليه بحسب ما فتح له من دلالة القرآن بطريق الخبر ، وإلا فدلالته البرهانية العقلية التي يشير إليها ويرشد إليها ، فتكون دليلاً سمعيّاً عقليّاً ، أمر تميز به القرآن ، وصار العالم به من الراسخين في العلم ، وهو العلم الذي يطمئن إليه القلب ، وتسكن عنده النفس ، ويزكو به العقل ، وتستنير به البصيرة ، وتقوى به الحجة ، ولا سبيل لأحد من العالمين إلى قطع من حاجّ به ، بل من خاصم به فَلَجَتْ حجتُه وكسر شبهة خصمه ، وبه فُتحت القلوب واستُجيب لله ولرسوله ، ولكن أهل هذا العلم لا تكاد الأعصار تسمح منهم إلا بالواحد بعد الواحد ، فدلالة القرآن سمعية عقلية قطعية يقينية لا تعترضها الشبهات ، ولا تتداولها الاحتمالات ، ولا ينصرف القلب عنها بعد

فهمها أبداً . وقال بعض المتكلمين : أفنيت عمري في الكلام أطلب الدليل وأنا لا أزداد إلا بعداً عن الدليل ، فرجعت إلى القرآن أتدبره وأتفكر فيه ، وإذا أنا بالدليل حقّاً معي وأنا لا أشعر به ، فقلت : والله ما مثلي إلا كما قال القائل :

ومن العجائب والعجائب جمّةٌ   قُربُ الحبيب وما إليه وصولُ !!

كالعيس في البيداء يقتلها الظما   والماءُ فوق ظهورها محمـــول

قال : « فلما رجعت إلى القرآن إذا هو الحكم والدليل ، ورأيت فيه من أدلة الله وحججه وبراهينه وبيناته ، ما لو جُمعَ كلُّ حق قاله المتكلمون في كتبهم ، لكانت سورةٌ من سور القرآن وافيةً بمضمونه ، مع حسن البيان وفصاحة اللفظ ، وتطبيق المفصل ، وحسن الاحتراز ، والتنبيه على مواقع الشبه ، والإرشاد إلى جوابها ، وإذا هو كما قيل بل فوق ما قيل :

كفى وشفى ما في الفؤاد فلم يدعْ   لذي أرب في القول جدّاً ولا هزلاً

وجعلت جيوش الكلام بعد ذلك تفد إليّ كما كانت ، وتتزاحم في صدري ولا يأذن لها القلب بالدخول فيه ، ولا تلقى منه إقبالاً ولا قبولاً فترجع على أدبارها » .

والمقصود أن القرآن مملوء بالاحتجاج ، وفيه جميع أنواع الأدلة والأقيسة الصحيحة ، وأمر الله تعالى رسوله ﷺ فيه بإقامة الحجة والمجادلة . فقال تعالى : ﴿ ... **وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ... ﴾ [النحل : ١٢٥] . وقال : ﴿ **وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ... ﴾ [العنكبوت : ٤٦]. وهذه مناظرات القرآن مع الكفار موجودة فيه ، وهذه مناظرات رسول الله ﷺ وأصحابه لخصومهم وإقامة الحجج عليهم ، لا ينكر ذلك إلا رجل مفرط في الجهل .

والمقصود : الفرق بين الحجج والبينات ؟ . فنقول : الحجج : الأدلة العلمية . والبينات : جَمْعُ بينة ، وهي صفة في الأصل . يقال : آية بينة وحجة بينة ، والبينة : اسم لكل ما يبين الحق من علامة منصوبة أو أمارة أو دليل علمي . قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ** ... ﴾ [الحديد : ٢٥] . فالبينات : الآيات التي أقامها الله دلالة على صدقهم من المعجزات ، والكتاب هو الدعوة . وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ۞ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ** ... ﴾ [آل عمران : ٩٦-٩٧] .

ومقام إبراهيم آية جزئية مرئية بالأبصار ، وهو من آيات الله الموجودة في العالم . ومنه قول موسى لفرعون وقومه : ﴿ ... **قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝ قَالَ إِنْ كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ ۝ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ** ... ﴾ [الأعراف : ١٠٥-١٠٧] . وكان إلقاء العصا وانقلابها حية هو البينة . وقال قوم هود : ﴿ ... **يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ** ... ﴾ [هود : ٥٣] يريدون آية الاقتراح ، وإلا فهو قد جاءهم بما يعرفون به أنه رسول الله إليهم، فطلب الآية بعد ذلك تعنتٌ واقتراح ليكون لهم عذر في عدم الإجابة إليه ، وهذه هي الآيات التي قال الله تعالى فيها : ﴿ **وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ** ... ﴾ [الإسراء : ٥٩] فعدم إجابته سبحانه وتعالى إليها ، إذ طلبها الكفار ، رحمة منه وإحسان ، فإنه جرت سنته التي لا تبديل لها أنهم إذا طلبوا الآية ، وأجيبوا و لم يؤمنوا ، عوجلوا بعذاب الاستئصال . فلما علم سبحانه وتعالى أن هؤلاء لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ، لم يجبهم إلى ما طلبوا ، فلم يعمُّهم بعذاب لما أخرج من بنيهم وأصلابهم من عباده المؤمنين ، وإن أكثرهم آمن بعد ذلك بغير الآيات التي اقترحوها ، فكان عدم إنزال الآيات المطلوبة من تمام حكمة الرب ورحمته وإحسانه ، بخلاف الحجج ، فإنها لم تزل متتابعة يتلو بعضها بعضاً ، وهي كل يوم في مزيد ، وتوفي رسول الله ﷺ وهي أكثر ما كانت ، وهي باقية إلى يوم القيامة .

❧ ❧ ❧

وقوله : « **أولئك الأقلون عدداً الأعظمون عند الله قدراً** »

يعني : هذا الصنف من الناس أقل الخلق عدداً ، وهذا سبب غربتهم ، فإنهم قليلون في الناس ، والناس على خلاف طريقهم ، فلهم نبأٌ وللناس نبأ . قال النبي ﷺ : « **بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ** » (٢٥) فالمؤمنون قليلون في الناس ، والعلماء قليل في المؤمنين ، وهؤلاء قليل في العلماء ، وإياك أن تغتر بما يغتر به الجاهلون ، فإنهم يقولون : لو كان هؤلاء على حق لم يكونوا أقل الناس عدداً ، والناس على خلافهم ، فاعلم أن هؤلاء هم الناس . ومن خالفهم فمشبهون بالناس وليسوا بناس ، فما الناس إلا أهل الحق وإن كانوا أقلهم عدداً . قال ابن مسعود : « **لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس ، ليوطن أحدكم نفسه على أن يؤمن ولو كفر الناس** » . وقد ذمّ سبحانه وتعالى الأكثرين في غير موضع ، كقوله : ﴿ **وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** ... ﴾ [الأنعام : ١١٦] وقال : ﴿ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ**

بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٢] . وقال : ﴿ ... **وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾ [سبأ : ١٣] وقال : ﴿ ... **وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ** ...﴾ [ص : ٢٤] . وقال بعض العارفين : انفرادك في طريق طلبك دليل على صدق الطلب .

مُتْ بداء الهوى وإلا فخاطرْ واطرق الحي والعيون نواظرْ
لا تخف وحشة الطريق إذا سر ت وكن في خفارة الحق سائرْ

وقوله : « **بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم ويزرعوها في قلوب أشباههم** »

وهذا لأن الله ﷻ ضمن حفظ حججه وبيناته ، وأخبر رسول الله ﷺ أنه **لا تزال طائفة من أمته على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، إلى قيام الساعة** فلا يزال غرسُ الله الذين غرسهم في دينه يغرسون العلم في قلوب من أَهَّلهم الله لذلك وارتضاهم ، فيكونوا ورثة لهم كما كانوا هم ورثة لمن قبلهم ، فلا تنقطع حُجج الله والقائمُ بها من الأرض . وفي الأثر المشهور : « **لاَ يَزَالُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَغْرِسُ فِي هَذَا الدِّينِ غَرْساً يَسْتَعْمِلُهُمْ بِطَاعَتِهِ** » (٢٦) . وكان من دعاء بعض من تقدم : « اللهم اجعلني من غرسك الذين تستعملهم بطاعتك » . ولهذا ما أقام الله لهذا الدين من يحفظه ثم قبضه إليه ، إلا وقد زرع ما علمه من العلم والحكمة : إما في قلوب أمثاله ، وإما في كُتُبٍ ينتفع بها الناس بعده . وبهذا وبغيره فَضَلَ العلماءُ العُبَّادَ ؛ فإن العالم إذا زرع علمه عند غيره ثم مات ، جرى عليه أجُره وبقي له ذكرُه ، وهو عمر ثانٍ وحياة أخرى ، وذلك أحق ما تنافس فيه المتنافسون ورغب فيه الراغبون .

وقوله : « **هجم بهم العلم على حقيقة الأمر ، فاستلانوا ما استوعره المترفون ، وأنسوا مما استوحش منه الجاهلون** »

الهجوم على الرجل : الدخول عليه بلا استئذان . ولما كانت طريق الآخرة وعرة على أكثر الخلق ، لمخالفتها لشهواتهم ومباينتها لإراداتهم ومألوفاتهم ، قلَّ سالكوها ، وزهَّدهم فيها قلةُ علمهم أو عدمه بحقيقة الأمر وعاقبة العباد ومصيرهم ، وما هيئوا له وهيئ لهم ، فقلَّ علمهم بذلك واستلانوا مركب الشهوة والهوى على مركب الإخلاص والتقوى ، وتوعرت عليهم الطريق وبعدت عليهم الشقة ، وصعب عليهم مرتقى عقابها ، وهبوط أوديتها ، وسلوك شعابها ، فأخلدوا إلى الدعة والراحة ، وآثروا العاجل على الآجل ، وقالوا : عيشنا اليوم نقْدٌ وموعودُنا نسيئةٌ ، فنظروا إلى عاجل الدنيا وأغمضوا العيون عن آجلها ، ووقفوا مع ظاهرها ، و لم يتأملوا باطنها ، وذاقوا حلاوةَ مباديها وغاب عنهم مرارةُ عواقبها ، وَدَرَّ لهم ثديُها فطاب لهم الارتضاع ، واشتغلوا به عن التفكر في الفطام ومرارة الانقطاع ، وقال مُغْتَرُّهم بالله وجاحدُهم لعظمته وربوبيته متمثلاً في ذلك :

« خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به »

وأما القائمون لله بحجته ، خلفاء نبيه في أمته ، فإنهم لكمال علمهم وقوته ، نفذ بهم إلى حقيقة الأمر ، وهجم بهم عليه ، فعاينوا ببصائرهم ما غشيت عنه بصائر الجاهلين ، فاطمأنت قلوبهم به ، وعملوا على الوصول إليه لما باشرها من روح اليقين ؛ رفع لهم علم السعادة فشمروا إليه ، وأسمعهم منادي الإيمان النداء فاستبقوا إليه ، واستيقنت أنفسهم ما وعدهم به ربهم فزهدوا فيما سواه ورغبوا فيما لديه ، علموا أن الدنيا دار ممر لا دار مقر ، ومنـــزل عبور لا مقعد حبور ، وأنها خيال طيف أو سحابة صيف ، وأن من فيها كراكب قال تحت ظل شجرة ثم راح عنها وتركها ، وتيقنوا أنها أحلام نوم أو كظل زائل :

« إن اللبيب بمثلها لا يُخدع »

وأن واصفها صدق في وصفها إذ يقول :

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها   على أنهم فيها عُراةٌ وجُوَّعُ
أراها ، وإنْ كانت تُحَبّ ، فإنها   سحابة صيف عن قليلٍ تَقَشَّعُ

فرحلتْ عن قلوبهم مدبرة ، كما ترحلت عن أهلها مولية ، وأقبلت الآخرة إلى قلوبهم مسرعة ، كما أسرعت إلى الخلق مقبلة ، فامتطوا ظهور العزائم وهجروا لذة المنام ، وما ليلُ

المحب بنائم . علموا طول الطريق وقلة المقام في منـــزل التزود ، فسارعوا في الجهاز وجدّ بهم السير إلى منازل الأحباب ، فقطعوا المراحل وطووا المفاوز .

وهذا كله من ثمرات اليقين ؛ فإن القلب إذا استيقن ما أمامه من كرامة الله ، وما أعد لأوليائه ، بحيث كأنه ينظر إليه من وراء حجاب الدنيا ، ويعلم أنه إذا زال الحجاب رأى ذلك عياناً ، زالت عنه الوحشة التي يجدها المتخلفون ، ولانَ له ما استوعره المترفون .

وهذه المرتبة هي **أول مراتب اليقين** ؛ وهي علمه وتيقنه ، وهي انكشاف المعلوم للقلب بحيث يشاهده ولا يشك فيه كانكشاف المرئي للبصر . ثم يليها **المرتبة الثانية** : وهي مرتبة « **عين اليقين** » ، ونسبتها إلى العين كنسبة الأولى إلى القلب . ثم تليها **المرتبة الثالثة** : وهي « **حق اليقين** » ، وهي مباشرة المعلوم وإدراكه الإدراك التام . فالأولى كعلمك بأن في هذا الوادي ماء ، والثانية كرؤيته ، والثالثة كالشرب منه . ومن هذا ما يُروى في حديث حارثة [٢٧] . وقول النبي ﷺ : « **كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقّاً . قال : إن لكل قول حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفت نفسي عن الدنيا وشهواتها ؛ فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وإلى أهل النار يتعاوون فيها . فقال : عبدٌ نوَّرَ اللهُ قلبه** » . فهذا هو هجوم العلم بصاحبه على حقيقة الأمر ، ومن وصل إلى هذا استلان ما يستوعره المترفون ، وأنس مما يستوحش منه الجاهلون ، ومن لم يثبت قدم إيمانه على هذه الدرجة ، فهو إيمان ضعيف . وعلامة هذا انشراح الصدر لمنازل الإيمان وانفساحه ، وطمأنينة القلب لأمر الله ، والإنابة إلى ذكر الله ومحبته ، والفرح بلقائه والتجافي عن دار الغرور ، كما في الأثر المشهور [٢٨] « **إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح . قيل : وما علامة ذلك ؟ . قال : التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله** » . وهذه هي الحال التي تحصل للصحابة عند النبي ﷺ إذا ذكرهم الجنة والنار ، كما في الترمذي وغيره [٢٩] من حديث الجريري عن أبي عثمان النهدي عن حنظلة الأسدي ، وكان من كتاب النبي ﷺ ، أنه « **مَرَّ بِأَبِي بَكْرٍ ﷺ وَهُوَ يَبْكِي . فَقَالَ : مَا لَكَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا أَبَا بَكْرٍ ، نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ ، فَإِذَا رَجَعْنَا عَافَسْنَا الْأَزْوَاجِ وَالضَّيْعَةِ وَنَسِينَا كَثِيرًا !! . قَالَ : فَوَاللَّهِ إِنَّا كَذَلِك . انْطَلِقْ بِنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَانْطَلَقْنَا ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ : مَا لَكَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ ، فَإِذَا رَجَعْنَا عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالضَّيْعَةَ وَنَسِينَا كَثِيرًا . قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : لَوْ**

تَدُومُونَ عَلَى الْحَالِ الَّتِي تَقُومُونَ بِهَا مِنْ عِنْدِي ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ فِي مَجَالِسِكُمْ ، وَفِي طُرُقِكُمْ ، وَعَلَى فُرُشِكُمْ ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً سَاعَةً وَسَاعَةً » (قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح) [٣٠] . وفي الترمذي أيضاً نحوه من حديث أبي هريرة . والمقصود أن الذي يهجم بالقلب على حقيقة الإيمان ، ويلين له ما يستوعره غيره ، ويؤنسه مما يستوحش منه : سواء العلم التام والحب الخالص ، والحب تبع للعلم ، يقوى بقوته ويضعف بضعفه ، والمحب لا يستوعر طريقاً توصله إلى محبوبه ولا يستوحش فيها .

❦ ❦ ❦

وقوله : « **صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى ، وفي رواية بالمحل الأعلى** »

الروح في هذا الجسد بدار غربة ولها وطن غيره ، فلا تستقر إلا في وطنها ، وهي جوهر علوي مخلوق من مادة علوية ، وقد اضطرت إلى مساكنة هذا البدن الكثيف ، فهي دائماً تطلب موطنها في المحل الأعلى ، وتحنُّ إليه حنين الطير إلى أوكارها ، وكل روح ففيها ذلك ، ولكن لفرط اشتغالها بالبدن وبالمحسوسات المألوفة ، أخلدت إلى الأرض ونسيت معلمها ووطنها الذي لا راحة لها في غيره ، فإنه لا راحة للمؤمن دون لقاء ربه ، والدنيا سجنه حقّاً ؛ فلهذا تجدُ المؤمنَ : بدنُه في الدنيا وروحُه في المحل الأعلى . وفي الحديث المرفوع : « **إذا نام العبد وهو ساجد باهى الله به الملائكة فيقول : انظروا إلى عبدي ، بدنُه في الأرض وروحُه عندي** » (رواه تمام وغيره) [٣١] . وهذا معنى قول بعض السلف : القلوب جوالة ؛ فقلبٌ حول الحشر ، وقلبٌ يطوف مع الملائكة حول العرش . فأعظمُ عذاب الروح انغماسها وتدسيسها في أعماق البدن ، واشتغالها بملاذه وانقطاعها عن ملاحظة ما خلقت له وهيئت له ، وعن وطنها ومحلِّها ومحل أنسها ومنزل كرامتها . ولكن سكر الشهوات يحجبها عن مطالعة هذا الألم والعذاب ، فإذا صحت من سكرها ، وأفاقت من غمرتها ، أقبلت عليها جيوش الحسرات من كل جانب ، فحينئذ تتقطَّع حسراتٍ على ما فاتها من كرامة الله وقربه والأُنس به ، والوصول إلى وطنها الذي لا راحة لها إلا فيه ، كما قيل :

صَحِبتُكَ إذ عيني عليها غشاوةٌ فلما انجلتْ قطَّعْتُ نفسي ألومُها

ولو تنقلت الروح في المواطن كلها والمنازل ، لم تستقر و لم تطمئن إلا في وطنها ومحلها الذي خلقت له ، كما قيل :

نَقِّلْ فؤادك حيث شئتَ من الهوى ما الحبُ إلا للحبيب الأولِ
كم منـــزلٍ في الأرض يألفه الفتى وحنينُه أبداً لأول منـــزلِ

وإذا كانت الروح تحن أبداً إلى وطنها من الأرض ، مع قيام غيره مقامه في السكنى ، وكثيراً ما يكون غير وطنها أحسن وأطيب منه ، وهي دائماً تحن إليه مع أنه لا ضرر عليها ولا عذاب في مفارقته إلى مثله ، فكيف بحنينها إلى الوطن الذي في فراقها له عذابها وآلامها وحسرتها التي لا تنقضي ، فالعبد المؤمن في هذه الدار سُبِيَ من الجنة إلى دار التعب والعناء ، ثم ضُرب عليه الرق فيها . فكيف يلام على حنينه إلى داره التي سُبي منها ، وفُرّق بينه وبين من يحب ، وجُمعَ بينه وبين عدوه ؟! فروحه دائماً معلقة بذلك الوطن وبدنه في الدنيا . ولي من أبيات في ذلك :

وحيَّ على جنات عدن فإنها منازلك الأولى وفيها المخيّمُ
ولكننا سبيُ العدو ، فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلَّمُ (٣٢)

وكلما أراد منه العدو نسيانَ وطنه ، وضربَ الذكر عنه صفحاً وإيلافَه وطناً غيره ، أبت ذلك روحُه وقلبُه ، كما قيل :

يراد من القلب نسيانُكم وتأبى الطباع على الناقلِ

ولهذا كان المؤمن غريباً في هذه الدار ، أين حلّ منها فهو في دار غربة . كما قال النبي ﷺ : « **كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيل** » (٣٣) ولكنها غربة تنقضي ويصير إلى وطنه ومنـــزله ، وإنما الغربة التي لا يُرجى انقطاعها فهي غربة في دار الهوان ، ومفارقة وطنه الذي كان قد هيئ وأعد له ، وأمر بالتجهيز إليه والقدوم عليه ، فأبى إلا اغترابه عنه ومفارقته له ، فتلك غربة لا يرجى إيابها ولا يُجبر مصابُها . ولا تبادر إلى إنكار كون البدن في الدنيا والروح في الملأ الأعلى

فللروح شأن وللبدن شأن ، والنبي ﷺ كان بين أظهر الصحابة ، وهو عند ربه يطعمه ويسقيه ، فبدنه بينهم وروحه وقلبه عند ربه . وقال أبو الدرداء : « إذا نام العبد عرج بروحه إلى تحت العرش ، فإن كان طاهراً أذن لها بالسجود ، وإن لم يكن طاهراً لم يؤذن لها بالسجود . فهذه ، والله أعلم ، هي العلة التي أمر الجنب لأجلها أن يتوضأ إذا أراد النوم ، وهذا الصعود إنما كان لتجرد الروح عن البدن بالنوم ، فإذا تجردت بسبب آخر حصل لها من الترقي والصعود بحسب ذلك التجرد ، وقد يقوى الحب بالمحب حتى لا يشاهد منه بين الناس إلا جسمه ، وروحه في موضع آخر عند محبوبه ، وفي هذا من أشعار الناس وحكاياتهم ما هو معروف .

***

وقوله : « **أولئك خلفاء الله في أرضه ودعاته إلى دينه** »

هذا حجة أحد القولين في أنه يجوز أن يقال : فلان خليفة الله في أرضه . واحتج أصحابه أيضاً بقوله تعالى للملائكة : ﴿ ... **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ... ﴾ [البقرة : ٣٠] واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ** ... ﴾ [فاطر : ٣٩] . وهذا خطاب لنوع الإنسان . وبقوله تعالى : ﴿ **أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ** ... ﴾ [النمل : ٦٢] وبقول موسى لقومه : ﴿ ... **عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٢٩] . وبقول النبي ﷺ : « **إِنَّ اللَّهَ مُمَكِّنٌ لَكُمْ فِي الأَرْضِ وَمُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ** » [٣٤] .

واحتجوا بقول الراعي يخاطب أبا بكر رضي الله عنه :

خليفةَ الرحمن إنا معشرٌ حنفاءُ نسجدُ بكرة وأصيلاً
عرب نرى لله في أموالنا حقَّ الزكاة منــزلاً تنــزيلاً

ومنعت طائفة هذا الإطلاق ، وقالت : لا يقال لأحد إنه خليفة الله ، فإن الخليفة إنما يكون عمن يغيب ويخلف غيره ، والله تعالى شاهد غير غائب ، قريب غير بعيد ، راء وسامع ، فمحال أن يخلفه غيرُه ، بل هو سبحانه وتعالى الذي يخلف عبده المؤمن فيكون خليفته ، كما قال النبي ﷺ في حديث الدجال : « **إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ** » والحديث في الصحيح . وفي صحيح مسلم أيضاً من

حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا سافر : « **اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ** ...» الحديث . وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال : « **اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأَبِي سَلَمَةَ وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ وَاخْلُفْهُ فِي أَهْلِهِ** » فالله تعالى هو خليفة العبد ، لأن العبد يموت فيحتاج إلى من يخلفه في أهله . قالوا : ولهذا أنكر الصديق ﷺ على من قال له : يا خليفة الله . قال : لست بخليفة الله ولكني خليفة رسول الله وحسبي ذلك . قالوا : وأما قوله تعالى : ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ فلا خلاف أن المراد به آدم وذريته ، وجمهور أهل السلف والخلف على أنه جعله خليفة عمن كان قبله في الأرض . قيل : عن الجن الذين كانوا سكانها . وقيل : عن الملائكة الذي سكنوا بعد الجن وقصتهم مذكورة في التفاسير. وأما قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ** ... ﴾ [الأنعام : ١٦٥] . فليس المراد به خلائف عن الله وإنما المراد به أنه جعلكم يخلف بعضكم بعضاً ، فكلما هلك قرن خلفه قرن إلى آخر الدهر . ثم قيل : إن هذا خطاب لأمة محمد ﷺ خاصة ، أي : جعلكم خلائف من الأمم الماضية ، فهلكوا وورثتم أنتم الأرض من بعدهم . ولا ريب أن هذا الخطاب للأمة ، والمراد : نوع الإنسان الذي جعل الله أباهم خليفة عمن قبله ، وجعل ذريته يخلف بعضهم بعضاً إلى قيام الساعة . ولهذا جعل هذا آية من آياته كقوله تعالى : ﴿ **أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ** ... ﴾ [النمل : ٦٢] . وأما قول موسى لقومه : ﴿ ... **وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ** ... ﴾ [الأعراف : ١٢٩] . فليس ذلك استخلافاً عنه وإنما هو استخلاف عن فرعون وقومه ، أهلكهم وجعل قوم موسى خلفاء من بعدهم ، وكذا قول النبي ﷺ : « **إِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِي الأَرْضِ** » [٣٥] . أي : من الأمم التي تهلك وتكونون أنتم خلفاء من بعدهم . قالوا : وأما قول الراعي فقول شاعر ، قال قصيدة في غيبة الصديق لا يُدرى أبلغت أبا بكر أم لا ؟ . ولو بلغته فلا يُعْلم أنه أقره على هذه النقطة أم لا .

قلت : إن أُريدَ بالإضافة إلى الله أنه خليفة عنه ، فالصواب قول الطائفة المانعة منها ، وإن أريد بالإضافة أن الله استخلفه عن غيره ممن كان قبله ، فهذا لا يمتنع فيه الإضافة ، وحقيقتها خليفة الله الذي جعله الله خلفاً عن غيره ، وبهذا يخرج الجواب عن قول أمير المؤمنين أولئك خلفاء الله في أرضه . فإن قيل هذا لا مدح فيه ، لأن هذا الاستخلاف عام في الأمة ، وخلافة الله التي ذكرها أمير المؤمنين خاصة بخواص الخلق . فالجواب : إن الاختصاص المذكور أفاد اختصاص الإضافة ، فالإضافة هنا للتشريف والتخصيص كما يضاف إليه عباده . كقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ... ﴾ [الحجر : ٤٢] . ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى**

الْأَرْضِ هَوْنًا ... ﴾ [الفرقان : ٦٣] ونظائرهما . ومعلوم أن كل الخلق عباد له ، فخلفاء الأرض كالعباد في قوله : ﴿ ... **وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ** ﴾ [آل عمران : ٢٠] . ﴿ ... **وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ** ﴾ [غافر : ٣١] . وخلفاء الله في قوله : ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ... ﴾ [الحجر : ٤٢] ونظائره . وحقيقة اللفظة : إن الخليفة هو الذي يخلف الذاهب ، أي يجيء بعده ، يقال خلف فلان فلاناً ، وأصلها « خليف » بغير هاء ، لأنها « فعيل » بمعنى « فاعل » كالعليم والقدير ، فدخلت التاء للمبالغة في الوصف كراوية وعلامة . ولهذا جُمعَ جَمْعَ فعيل : خلفاء . كشريف وشُرفاء وكريم وكُرماء . ومن راعى لفظه بعد دخول التاء عليه جمعه على « فعائل » فقال : خلائف . كعقيلة وعقائل وظريفة ظرائف ، وكلاهما ورد به القرآن . هذا قول جماعة من النحاة ، والصواب أن التاء إنما دخلت فيها للعدل عن الوصف إلى الاسم ، فإن الكلمة صفة في الأصل ، ثم أُجريت مجرى الأسماء فألحقت التاء لذلك ، كما قالوا : نطيحة بالتاء . فإذا أجروها صفة قالوا : شاة نطيح ، كما يقولون : كف خضيب . وإلا فلا معنى للمبالغة في خليفة حتى تلحقها تاء المبالغة والله أعلم .

***

وقوله : « **ودعاته إلى دينه** »

الدعاة : جمع داع ، كقاض وقضاة ، ورام ورماة . وإضافتهم إلى الله للاختصاص ، أي : الدعاة المخصوصون به الذين يدعون إلى دينه وعبادته ومعرفته ومحبته ، وهؤلاء هم خواص خلق الله وأفضلهم عند الله منـــزلة وأعلاهم قدراً . يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [فصلت : ٣٣] . قال الحسن : هو المؤمن أجاب الله في دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته ، وعمل صالحاً في إجابته ؛ فهذا حبيب الله ، هذا وليّ الله ، فمقام الدعوة إلى الله أفضل مقامات العبد . قال تعالى : ﴿ **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا** ﴾ [الجن : ١٩]. وقال تعالى : ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ... ﴾ [النحل : ١٢٥] جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق ؛ فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يُدعى بطريق الحكمة ، والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يُدعى بالموعظة الحسنة ؛ وهي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة ، والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن ، هذا هو الصحيح في معنى

هذه الآية لا ما يزعم أسير منطق اليونان ؛ أن الحكمة قياس البرهان وهي دعوة الخواص ، والموعظة الحسنة قياس الخطابة وهي دعوة العوام ، والمجادلة بالتي هي أحسن القياس الجدلي وهو رد شغب المشاغب بقياس جدلي مُسَلَّم المقدمات . وهذا باطل وهو مبني على أصول الفلسفة ، وهو مناف لأصول المسلمين وقواعد الدين من وجوه كثيرة ليس هذا موضع ذكرها . وقال تعالى : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ... ﴾ [يوسف : ١٠٨] . قال الفرَّاء وجماعة : « ومن اتبعني : معطوف على الضمير في أدعو ، يعني : ومن اتبعني يدعو إلى الله كما أدعو » ، وهذا قول الكلبي قال : « حقٌّ على كل من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه ويذكِّر بالقرآن والموعظة » . ويقوى هذا القول من وجوه كثيرة ، قال ابن الأنباري : « ويجوز أن يتم الكلام عند قوله : (**إلى الله**) ثم يبتدئ بقوله : (**عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي**) فيكون الكلام على قوله جملتين أخبر في أولاهما أن يدعو إلى الله ، وفي الثانية بأنه من أتباعه على بصيرة . والقولان متلازمان فلا يكون الرجل من أتباعه حقاً حتى يدعو إلى ما دعا إليه ، وقول الفراء أحسن وأقرب إلى الفصاحة والبلاغة » .

وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرفَ مقامات العبد وأجلَّها وأفضلَها فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه ، بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حدٍّ يصل إليه السعي ، ويكفي هذا في شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام ، والله يؤتي فضله من يشاء .

الهوامش

(١) جاء في « الأعلام » للزركلي [٢٣٥/٥] : « كميل بن زياد بن نهيك النخعي : تابعي ثقة من أصحاب علي بن أبي طالب . كان شريفاً مطاعاً في قومه ، شهد صفين مع علي ، وسكن الكوفة ، وروى الحديث » .

وجاء في « البداية والنهاية » لابن كثير [٥٠/٩] طبع دار الكتب العلمية – بيروت : « روى عن كميل جماعة كثيرة من التابعين ، وله الأثر المشهور عن علي بن أبي طالب ، الذي أوله : « القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها » . وهو طويل ، قد رواه جماعة من الحفاظ الثقات ، وفيه مواعظ وكلام حسن رضي الله عن قائله » .

(٢) ذكره أبو نعيم الأصفهاني في « حلية الأولياء » [٧٩/١-٨٠] طبع دار الفكر . مع اختلاف يسير في بعض الكلمات . ثم رأيته في « نهج البلاغة » [ص : ٤٩٥-٤٩٧] ، واعتمدت النسخة التي قام بضبطها وفهرستها الدكتور صبحي الصالح . ونص الوصية في « نهج البلاغة » فيه زيادات منكرة ، وقد أشار إلى نكارتها ابن القيم أثناء شرحه حديث علي ، ورأيت حذفها لأنها تخرج عن الموضوع .

هذا ، واعتمدت على « الحلية » و « النهج » في ضبط نص وصية علي لكميل ، الذي أورده ابن القيم في « مفتاح دار السعادة » من غير زيادة أو حذف في المعنى .

(٣) ورد هذا الأثر في « المعجم الكبير » للطبراني بلفظ : « **إن لله آنية من أهل الأرض ، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين ، وأحبها إليه ألينها وأرقها** » . وقد تحدث الألباني عن سنده وبين أنه « حسن » . فليراجعه من يشاء في « سلسلة الأحاديث الصحيحة » برقم [١٦٩١] .

(٤) رواه مسلم ، وفي رواية عند الشيخين : « **لا تُسَمُّوا الْعِنَبَ الْكَرْمَ ، فَإِنَّ الْكَرْمَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ** » .

(٥) روى الترمذي حديث جابر وقال عنه : « هذا حديث مرسل ، سعيد بن أبي هلال لم يدرك جابر بن عبد الله ». وقال الألباني عنه في « ضعيف سنن الترمذي » : « ضعيف الإسناد » . ورقم الحديث عنده ٥٣٧ . ونص حديث جابر عند الترمذي :

حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ ، أَخْبَرَنَا اللَّيْثُ ، عَنْ خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِلال : أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيَّ قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا ، فَقَالَ :

« **إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ جِبْرِيلَ عِنْدَ رَأْسِي وَمِيكَائِيلَ عِنْدَ رِجْلَيَّ ، يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : اضْرِبْ لَهُ مَثَلاً . فَقَالَ : اسْمَعْ سَمِعَتْ أُذُنُكَ ، وَاعْقِلْ عَقَلَ قَلْبُكَ ، إِنَّمَا مَثَلُكَ وَمَثَلُ أُمَّتِكَ ، كَمَثَلِ مَلِكٍ اتَّخَذَ دَارًا ، ثُمَّ بَنَى فِيهَا بَيْتًا ، ثُمَّ جَعَلَ فِيهَا مَائِدَةً ، ثُمَّ بَعَثَ رَسُولاً يَدْعُو النَّاسَ إِلَى طَعَامِهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَجَابَ الرَّسُولَ وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَكَهُ .**

فَاللَّهُ : هُوَ الْمَلِك . وَالدَّارُ : الإِسْلام . وَالْبَيْتُ : الْجَنَّة . وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ رَسُولٌ ؛ فَمَنْ أَجَابَكَ دَخَلَ الإِسْلامَ ، وَمَنْ دَخَلَ الإِسْلامَ دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ أَكَلَ مَا فِيهَا » .

(٦) العقال : الحبل الذي يربط به البعير . يقال : عَقَل البعير : إذا ضم رسغ يده إلى عضده وربطهما بالعقال ليبقى باركاً . وسُميَ العقل عقلاً لأنه يحجز صاحبه عن مساوئ الأخلاق وخوارم المروءة .

(٧) الحِجْرُ بكسر الحاء : العقل واللب ، وفي القرآن ﴿ **هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ** ﴾ [الفجر : ٥] . والحَجْرُ – بفتح الحاء وكسرها – : الثوب والحضن . وكلاهما يحجز ما بداخله ويحميه ، وكذلك العقل .

(٨) صحيح ذكره الألباني في صحيح « الجامع الصغير وزيادته » برقم ٦٠٣٥ ، وفيه : « **لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** » بدلاً من : « **لم يجد رائحة الجنة** » .

(٩) ضعيف جداً ، ذكره الألباني في « ضعيف الجامع الصغير وزيادته » برقم ٩٦٨ ، وفيه : « **لم ينفعه علمه** » بدلاً من : « **لم ينفعه الله بعلمه** » .

(١٠) العتود : من أولاء المعْزى ، وهو الذي أتى عليه الحول . والتُّلَجُ : فَرْخُ العُقاب .

(١١) ورد في هذا المعنى عدد من الأحاديث الصحيحة ، منها قوله ﷺ : « **مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَالْخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ** – السنبلة كما في رواية – **تُفَيِّئُهَا الرِّيحُ** – تقلبها فتميل يميناً ويساراً – **مَرَّةً وَتَعْدِلُهَا مَرَّةً . وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَالأَرْزَةِ لاَ تَزَالُ حَتَّى يَكُونَ انْجِعَافُهَا** – اقتلاعها – **مَرَّةً وَاحِدَةً** » .انظر « مختصر صحيح مسلم » الحديث رقم ٢٨ ، و « صحيح الجامع الصغير وزيادته » الأحاديث من رقم ٥٧١٧ إلى رقم ٥٧٢١ .

(١٢) هذه الجملة جزء من حديث رواه مسلم وغيره من حديث أبي هريرة ﷺ ، ونصه : « **مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا ، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللَّهُ** » .

(١٣) رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ ، ونصه : « **تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ** »

(١٤) يشير بذلك إلى قوله ﷺ الصحيح : « **منهومان لا يشبعان : طالب علم ، وطالب دنيا** » . انظر « صحيح الجامع الصغير وزيادته » ، الحديث رقم ٦٥٠٠ .

(١٥) الدوكرة : لعل المقصود بهذه الكلمة : التصنع والتظاهر بالخير .

(١٦) المُسْكَةُ : ما يُتمسّك به . والمسكة : ما يمسك الأبدان من طعام وشراب . وإذا جاءت كلمة « مُسكة » مفردة فإنها تعني : العقل الوافر ، يقال : فلان ذو مُسكة : صاحب رأي وعقل . ولا مُسكة له : لا عقل له .

(١٧) كلام خديجة رضي الله عنها جزء من حديث : « **أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ** .. » رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها .

(١٨) هذا آخر بيت في قصيدة المتنبي الرائعة ، والتي مطلعها :

لا خَيْلَ عندك تُهديها ولا مالُ   فَلْيُسْعِدِ النُّطقُ إن لم تُسعدِ الحالُ

وقد رأيت أن أثبت هنا عدداً من أبيات الحكمة من آخر القصيدة ، ويلاحظ أن هناك اختلافاً طفيفاً في نص البيت الذي ذكره ابن القيم ، وما أنقله من « ديوان المتنبي » طبع المكتبة الثقافية – بيروت :

لولا المشقة ساد الناسُ كُلُّهُمُ	**الجودُ يُفقــِرُ والإقــدامُ قتــّالُ**
وإنما يبلغ الإنســانُ طاقتَــه	**ما كلُّ ماشيةٍ بالرحل شِمْلالُ**
إنا لفي زمنٍ تَرْكُ القبيحِ به	**مِنْ أكثرِ الناسِ إحسانٌ وإجمالٌ !!**
ذِكْرُ الفتى عُمْرُهُ الثاني ، وحاجتهُ	**ما قاتهُ ، وفضولُ العيش أشغالُ**

شِمْلال : الناقة الضعيفة .

(١٩) الحديث « ضعيف » وما ذكره ابن القيم جزء منه ، انظر تخريجه في « مشكاة المصابيح » للخطيب البغدادي بتحقيق الألباني ، الحديث رقم ٩٥٥ ، وانظر « ضعيف الجامع الصغير » الحديث رقم ١٢٨٨ .

(٢٠) اخترت من « صحيح البخاري » نص الحديث الذي رواه عن عبد الله بن عمرو . وضبطت النص في الشرح عليه ، انظر « كتاب العلم – باب كيف يُقبض العلم » .

(٢١) أثبتُّ هنا ما رواه مسلم من حديث ثوبان . انظر الحديث رقم ١٠٩٥ من « مختصر صحيح مسلم » للمنذري. وللحديث روايات كثيرة بألفاظ متقاربة ، راجع « صحيح الجامع الصغير وزيادته » للألباني : الأحاديث من ٧١٦٤ إلى ٧١٧٣ .

(٢٢) الحديث « صحيح » رواه الترمذي وغيره . راجع الحديث رقم ٥٧٣٠ من « صحيح الجامع الصغير وزيادته » . والحديث رقم ٢٣٠٢ من « صحيح سنن الترمذي » للألباني .

(٢٣) يقول الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه « كيف نتعامل مع السنة النبوية » عند الكلام على هذا الحديث : (الحديث ذكره الإمام ابن القيم في « مفتاح دار السعادة » وقوّاه لتعدُّد طرقه « ج١/١٦٣-١٦٤ » طبع دار الكتب العلمية ببيروت وكذلك العلامة ابن الوزير الذي استظهر صحته أو حسنه لكثرة طرقه ، مع ما نقل من تصحيح الإمام أحمد له ، والحافظ ابن حجر ..) راجع تمام كلام القرضاوي وشرحه للحديث في كتابه المذكور « ص ٢٨-٣١ » .

(٢٤) الحديث « حسن » وقد آثرت ذكر نص الحديث الوارد في « صحيح الجامع الصغير وزيادته » برقم ٧٠٦٩ لأنه أكثر ضبطاً وأكمل .

(٢٥) رواه الترمذي من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ ، وهو في « صحيح سنن الترمذي » للألباني برقم ٢١٢٠ . ورواه مسلم بلفظ آخر تجده في « مختصر صحيح مسلم » برقم ٧٢ . ورواه ابن ماجه بألفاظ متقاربة ، راجع « صحيح ابن ماجه » للألباني ، الأحاديث من ٣٢٢١ إلى ٣٢٢٣ .

(٢٦) سبق الكلام عن هذا الحديث تحت رقم (٢٤) .

(٢٧) أشار ابن القيم نفسه إلى ضعف حديث حارثة حين صدَّره بصيغة التمريض : « ومن هذا ما يُروى من حديث حارثة » . وذكر ابن حجر في « الإصابة في تمييز الصحابة » لحديث حارثة هذا عدداً من الروايات وذكر أنها لا تصح انظر « الإصابة » حرف الحاء « ٢٨٩/١ » .

(٢٨) هذا الأثر « ضعيف » وقد تحدث الألباني عن طرقه مبيناً عللها في « سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة » « ٣٨٣/٢-٣٨٧ » ، ورقم الحديث : ٩٦٥ فليراجعه من يريد .

(٢٩) و (٣٠) حديث حنظلة « صحيح » ، وهو مذكور في « صحيح سنن الترمذي » تحت رقم ٢٠٤١ ، ورواه غير الترمذي أيضاً مع خلاف يسير في اللفظ . انظر على سبيل المثال « مختصر صحيح مسلم » الحديث رقم ١٨٨٧ ، و « صحيح ابن ماجه » الحديث رقم ٣٤١٧ .

(٣١) حديث « إذا نام العبد .. » « ضعيف » ، وقد أورده الألباني في « سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة » مع اختلاف يسير في الألفاظ . انظر تخريجه هناك في « ٢/٢٦٩-٢٧٠ » والحديث رقمه : ٩٥٣ .

(٣٢) تحدث ابن القيم في كتابه « مدارج السالكين » عن منـــزلة الغربة فأجاد الكلام ، واستشهد بنصوص فأحسن الاستشهاد ، وذكر الإمام ابن القيم هذه البيتين مع ثلاثة أبيات أخرى ، وقد رأيت ذكرها جميعاً هنا لتمام الفائدة :

وحيَّ على جنات عدنٍ فإنها	**منازلك الأولى وفيها المخيَّمُ**
ولكننا سَـــبْيُ العدو فهل ترى	**نعود إلى أوطاننا ونُسَـــلَّمُ**
وأيُّ اغتراب فوق غربتنا التي	**لها أضحت الأعداء فينا تَحكَّمُ**
وقد زعموا أن الغريب إذا نأى	**وشطت به أوطانه ، ليس ينْعَمُ**
فمن أجل ذا لا ينعم العبد ساعة	**من العمر إلا بعد ما يتألَّمُ**

وانظر « تهذيب مدارج السالكين » للأستاذ عبد المنعم صالح العلي « ٥٧٧-٥٨١ »

(٣٣) حديث : « **كُنْ فِي الدُّنْيَا** .. » رواه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما ، ورواه أحمد والترمذي وابن ماجه وزادوا : « ... **وَعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ الْقُبُور** » .

(٣٤) روى مسلم هذا الحديث عن أبي سعيد الخدري ﷺ ، بلفظ : « **إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا ، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ** » .

(٣٥) لعل الصواب ما ذكرته آنفاً من قول النبي ﷺ : « **إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا** ... » الحديث رواه مسلم .